الأستاذ الدكتور
يحيى وهيب الجبوري

النساء الحاكمات

من الجواري والملكات



30 عاما من العطاء
مجدلاوي

النساء الحاكمات

من الجواري والملكات

النساء الحاكمات

من الجواري والملكات

د. يحيى الجبوري

الطبعة الأولى

2010 - 2011 م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2010/5/1810)

الجبوري، يحيى وهيب

النساء الحاكمات/ النساء الحاكمات من الجواري والملكات/يحيى وهيب الجبوري. _ عمان:
عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010

( ) ص.

ر.أ: (2010/6/1810)

الواصفات: الشعر العربي//الأدب العربي

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978 - 9957 - 02 - 405 - 5 (ردمك)

دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص . ب ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١
عمان - الاردن

Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Code 11941
Amman- Jordan

www.majdalawibooks.com
E-mail: customer@majdalawibooks.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
أولاً: الجواري الحاكمات في العالم الإسلامي	7
كثرة الجواري في قصور الخلفاء والأمراء:	10
دور الجواري في الحياة:	15
كثرة الخلفاء من أبناء الجواري:	16
الجواري في قصور الخلفاء:	19
ثانياً: نساء حاكمات 1- قبل الإسلام	21
بلقيس ملكة سبأ	21
الـزبّـاء: ملكة تدمر	27
دلوكة بنت الزبـاء	35
النضيرة بنت الساطرون	39
2- بعد الإسلام: سجاح بنت الحارث التميمية	41
الخيزران	45
كثرة الخلفاء من أبناء الجواري:	50
بدونة زوجة توقيل ملك الروم	61
فضل الشاعرة اليمامية	63
قبيحة	69
شغب أم المقتدر العباسي	75
صبيحـة	83
ست الملك الفاطمية أخت الحاكم بأمر الـلـه	89

تفانو ملكة الروم زوجة أرمانوس ملك الروم	95
تركان خاتون زوجة السلطان ملك شله إلب أرسلان السلجوقي	99
زمرد خاتون بنت جاولي صاحب مدينة الموصل	101
زمرد زوجة الأمير طغتكين بن أيوب الأيوبي صاحب بلاد اليمن	103
راضية	105
تركان خاتون من قبيلة بيارون من فروع يمك	113
شاهان مولاة المستنصر بالله	115
شجرة الدر جارية الصالح أيوب	119
بيرخان بنت الشاه طهماسب	125
المصادر والمراجع	129
فهرس الأعلام	133
الكتب الصادرة للمؤلف	142

أولاً:

الجواري الحاكمات في العالم الإسلامي

لقد حكمت مجموعة من الجواري ولقبت بلقب سلطانة، منهن شجرة الدر ملكة مصر التي استولت على الحكم سنة 648 هـ شأنها في ذلك شأن أي قائد عسكري يفرض نفسه بحسه الاستراتيجي، فقد قادت جيوش المسلمين خلال الحروب الصليبية من انتصار إلى آخر فهزمت الجيش الفرنسي وأسرت ملكهم لويس التاسع.

ومن النساء الحاكمات: الخيزران التي احترفت السياسة ولعبت دورا مغايراً لنساء الحريم، فقد مارست السياسة عبر عدة خلفاء منهم زوجها وأبناؤها، وحكمت الإمبراطورية بأكملها.

وكذلك حكمت الجارية شغب أم الخليفة المقتدر التي توفيت سنة 312 هـ وهي من أصل رومي.

وقد اتسمت حياة النساء الحاكمات، بالغدر والقسوة والتآمر والقتل، وإذا ألقينا على سيرتهن نظرة سريعة نجد الآتي:

إن **بلقيس** ملكة سبأ التقت بالنبي سليمان وذُكِرت في القرآن، كان أبوها ملكاً من ملوك اليمن مات دون وصية فخلفه ابن أخيه في حكم اليمن وكان ضعيفاً سيء السيرة، احتالت بلقيس ودبرت مكيدة فقتلته وتسلمت الحكم في بلاد اليمن، أما **الزباء** ملكة تدمر فكانت مشيرة لزوجها ثم وصية على أولادها، فتسلمت الحكم وقادت الجيوش وقاتلت الأعداء، حتى وقعت في الأسر فأنهت حياتها بتجرعها السم. أما **دلوكة** بنت الزباء فقد عملت مملكة مستقلة للنساء لا نصيب للرجال فيها، وكان من أمر **النضيرة** بنت الساطرون أن حاربت كسرى سابور، ولكنها لما رأته جميلاً وسيماً عشقته وتزوجته فخانت قومها، وكان مصيرها مصير من يخون أهله فلم يأمنها سابور وكان مصيرها القتل تحت حوافر الخيل، أما **سجاح** التميمية فقد ادَّعتْ

النبوة وتبعها قومها من بني تميم، وقادت القبيلة في الحروب، ولكنها وقعت في شباك مسيلمة الكذاب فتزوجته، وحارب مسيلمة المسلمين فقُتِل، وبقيت سجاح متحيرة حتى أسلمت مكرهة.

أما **الخيزران** الجارية زوجة الخليفة المهدي وأم هارون الرشيد فقد تسلمت السلطة في زمن ابنها وكان لها الأمر والنهي، وقد أملت على المهدي أن يكون أبناؤها ولاة للعهد دون أبنائه من زوجته الارستقراطية ريطة، ولما ولي العهد ابنها موسى الهادي ولم ترض بسياسته، دبرت قتله ليكون ابنها هارون الرشيد مكانه، وصفت لها الأمور وكانت هي الحاكمة المتحكمة، ولم يكن لابنها الرشيد إلا الاسم دون الرسم، حتى لفها الموت.

وكانت **بدونة** زوجة توقيل ملك الروم قد حكمت وحاربت المسلمين، وكانت صليبية متعصبة، وتفتخر بأنها أسرت ستمائة امرأة من المسلمين، وقتلت مجموعة كبيرة من الرجال والأطفال. أما **فضل** الشاعرة جارية المتوكل فكانت تتصدر المجلس بحضور المتوكل وتباري الشعراء، وكلمتها مسموعة مطاعة. وكذلك كانت **قبيحة** جارية المتوكل وأم المعتز من أكثر النساء نفوذاً وتسلطاً، ولما علمت بأن المستعين سيتولى الخلافة دون ولدها، كتبت إلى أحمد بن طولون أن يأتيها برأس المستعين، فتردد ثم قتله الأتراك، وأراد الأتراك رواتبهم من ابنها المعتز، فلم يكن لديه ما يكفي، وطلب المال من أمه قبيحة فبخلت، وقُتل ابنها وهي تملك الخزائن العامرة. أما الجارية **شغب** زوجة المعتضد، فلما توفي زوجها وصار ابنها المقتدر وهو طفل سيرت أمور الدولة وكانت تجلس مع الفقهاء والقضاة للنظر في عرائض الناس، وكانت تعين الوزراء وتعزل من تشاء، وتصادر أموال الوزراء والأعيان، وكان الوزراء يقدمون لها الرشاوى ليستمروا في السلطة، ومثلها **صبيحة** التونسية زوجة الحكم المستنصر، كانت تدير أمور الدولة في حياة زوجها المنصرف للعلم، وتثق بمعاونها محمد بن أبي عامر، فلما توفي زوجها ورث ابنها هشام الحكم وهو مازال طفلاً، فتسلمت أمور الحكم، وأول عمل عملته هو قتل المغيرة الذي ينافس

ابنها في الحكم، ثم القضاء على سلطان ابن أبي عامر الذي تنكر لها. وكانت **ست الملك** الفاطمية من أشد النساء قسوة، فقد قتلت أخاها الحاكم بأمر الله، وقتلت من قتله وتعاون معها، وكانت تنصب الوزراء وتعزلهم وكلمتها هي المسموعة في الدولة. وكان من قسوة **تفانو** ملكة الروم أن قتلت زوجها أرمانوس، ثم تزوجت الملك نقفور الذي أراد أن يخصي أولادها حتى لايرثوا الحكم فأرسلت من قتله، ثم تزوجت الملك يانس، ولم تأمن جانبه فسقته السم، **وتركان** خاتون مات زوجها وكان ابنها طفلاً، فأخفت تركان موت زوجها وجمعت العساكر لمبايعة ابنها، ودبرت أمور الدولة وقادت الجيوش لمحاربة خصومها. وقتلت **زمرد** خاتون ولدها شمس الملوك إسماعيل فدست له السم لظلمه فيما تزعم، وتزوجت عماد الدين زنكي ثم طلقها، فافتقرت فاقترنت برجل باقلاني فقير الحال فأذلّها. وتآمرت **زمرد** خاتون زوجة طغتكين على قتل ابنها المعز إسماعيل، وتزوجت غازي بن جبريل فمات مسموماً وصفت لها الأمور وملكت زبيد، وأحضرت سليمان بن شاهنشاه من مكة وكان فقيراً فتزوجته وملّكته اليمن، وكان ظالماً لم يرعَ حق زمرد. أما **راضية** فكانت ابنة ملك هو التتمش الذي عين ابنته ولية للعهد رغم أن له ثلاثة أولاد، وكان أخوها لأبيها ركن الدين قد حكم وهددها بالقتل فاستجارت بالشعب وأظهرت ظلمه فانتصرت عليه وأمرت بقتله، واستقلت بالملك أربع سنين، ثم إنها اتُّهِمت بعبد لها من الحبشة، فاتفق الناس على خلعها وتزويجها من بعض أقاربها.

وحاربت **شجرة الدر** الفرنسيين وانتصرت عليهم، وهيأت لابنها الحكم بعد وفاة أبيه ولكنه كان ضعيفاً فتسلمت هي الحكم، ولكن المماليك البحرية أجبروها على التنحي إرضاء لخليفة بغداد، ولما عرفت القائد المرشح للحكم سارعت إلى الزواج به، وأمرت أن تُلقى الخطبة في المساجد باسمها واسم زوجها، وكذلك تضرب السكة باسمهما، وتسلمت الملك بعد وفاة زوجها، ثم تزوجت عز الدين أيبك، ولما علمت أن زوجها خطب بنت بدر الدين لؤلؤ، قررت قتله، فأمرت جواريها أن يقتلنه

في الحمام، وقتلت بيرخان أخاها وأمرت الغلمان أن يضربوه بالسيوف، ثم غدر بها أخوها الآخر فقتلت.

ويلاحظ أن الغدر والتآمر كان من شيمة هذه النساء اللواتي وصلن للحكم، وكان مصير أكثرهن القتل أو العزل والنسيان.

كثرة الجواري في قصور الخلفاء والأمراء:

كان معظم سكان الدول المفتوحة يؤخذون ضمن السبي، وكانت القصور تزخر بالجواري اللاتي يقدمن بثقافاتهن وغراباتهن، فكن فارسيات أو كرديات أو رومانيات أو أرمنيات أو أثيوبيات أو سودانيات أو هنديات أو بربريات. وكان هارون الرشيد يملك ألف جارية، أما المتوكل الذي حكم بين 232 و247 هـ فقد كان له أربعة آلاف جارية[1]. وغدا الحريم في كل قصر موضعاً للرفاهية، حيث كانت أجمل نساء العالم يتخذن من الثقافات المختلفة وإتقان المعارف المتنوعة أوراقاً يغرين بها الخلفاء والوزراء. ذلك إن إغراء هؤلاء الرجال لم يكن رهيناً بالنظرات الفاتنة فحسب، بل كان من اللازم انتزاع إعجابهم في المجالات التي كانت تبهرهم، كعلم الفلك والرياضيات والفقه والتاريخ إضافة إلى الشعر والغناء، ولم يكن بإمكان النساء الجميلات الغارقات في النقاش الجدي، أن يصلن ويحققن الاستمرار في ذلك العالم، ذلك ما أدركته الجواري المحظيات، فأحطن أنفسهن بمعلمين أكفاء. ومن ثم تلقت الخيزران الفقه على يد أحد أشهر القضاة في عصرها لتنال الحظوة لدى المهدي، إضافة إلى ذلك كانت الخبرات الجنسية ورقة الأحاسيس مجالاً حاولت الجواري تطويره، حيث استغلت كل منهن أسوار ثقافتها الخاصة، ولم تكن النساء العربيات الارستقراطيات مؤهلات للصمود أمام المنافسة وخاصة في المجال الأخير، إذ كن محاصرات بالأخلاق المتشددة التي تفرضها الطبقات الحاكمة على نسائها، وهي أخلاق لم تكن الجواري مجبرات على الالتزام بها، وبالتالي فإن إقبال الأسياد عليهن دفع بهن تدريجياً إلى تعميق معرفتهن بالشهوة الذكورية ونزواتها[2].

ولم يمر وقت طويل حتى غدت كل منطقة في العالم الإسلامي مشهورة بخصال نسائها النوعية، وقد حققت نساء المغرب العربي سبقاً كبيرا: "من أراد الجارية للذة فليتخذها بربرية، ومن أرادها خازنة وحافظة فرومية، ومن أرادها للولد ففارسية، ومن أرادها للرضاع فزنجية، ومن أرادها للغناء فمكية"[3].

صدرت هذه النصائح عن خبير في الأمر، إنه طبيب مسيحي يدعى ابن بطلان المتوفى سنة 144 هـ اشتهر في بغداد لكفاءته، وزادت شهرته حين كتب بحثاً عن شاري الرقيق، وهو بحث يبعث على الانبهار إذ إنه يقدم نصائح عملية لإفشال حيل النخاسين الذين يزينون الجواري المريضات ويستعملون وسائل بسيطة لإكسابهن مظهراً يوحي بأنهن في كامل صحتهن، أو يغيرون لون شعرهن وبشرتهن حتى يتم الإقبال عليهن: "من ذلك ما يفعلونه في الألوان فتغير البشرة بشيئين، هما: أما السمراء فإنها تصير ذهبية... وأما الدرية اللون فتصير بيضاء... ومن ذلك ما يكسب الشعور الشقر السواد الحالك... وما يجعد الشعور السبطة... ومن عادة النخاسين إذا أرادوا أن يطولوا الشعور أن يوصلوا في طرفه من جنسه..."[4].

قد تظل بعض هذه الوصفات مفيدة حتى يومنا، وهكذا يجب الاحتياط في أولئك الذين يتوفرون على عيون واسعة لأنهم كسالى أو منحرفون، أما ذوو العيون الغائرة فهم حاسدون، وتدل العيون الزرق على التفاهة، أما الذي تتحرك حدقتاه بسرعة فيجسد القبح ذاته. أما إذا صادفك شخص يغلب سواد عينيه على بياضها فما عليك إلا أن تسلم رجليك للريح وتهرب لأنك أمام شخص أحمق.

أما الشعر الخفيف فيدل على البلاهة، في حين يدل الشعر الكثيف والأكرت على شجاعة كبيرة. وحسب ابن بطلان فإن محاولة الاتصال بشخص ذي أنف كبير مضيعة للجهد، إذ إن كبر الأنف دليل على البلاهة. أما الشخص ذو الجبهة العريضة فهو كسول، وليست الجبهة الضيقة بالصفة الجميلة لأنها تدل على الجهل، ويدل الفم الكبيرة على الشجاعة، أما الشفتان الكبيرتان فعلى البلاهة[5].

لكن ابن بطلان يتجاوز كل الأرقام القياسية حين يرشد الشاري المحتمل ورقتهن، ولكن مشكلتهن حسب قوله هو أنهن يمتن في سن مبكرة، وينصح بالتركيات لصفاتهن وجمالهن، ولكنهن سمينات، ونادراً ما نجد جارية تركية رشيقة القوام. أما الرومانيات فهن جوار ممتازات وغالباً ما يتوفرن على دراية بالأعمال اليدوية، أما اللاتي يجب تجنبهن فهن الأرمنيات لأنهن خائنات وسارقات وينصح باستعمال العصا معهن للوصول إلى نتيجة[6].

إن ما يبعث على الدهشة في كل هذه الكتابات هو أن الدول الإسلامية التي وضعت لنفسها هدف القضاء على العبودية انطلاقاً من رسالة النبي صلى الـله عليه وسلم وتعاليم القرآن قد حققت قصب السبق في العبودية، وظلت كذلك حتى الفترة التي تخلت فيها الدول الأوربية عن الظاهرة خلال القرن التاسع عشر وفي منتصف القرن الثاني عشر هـ الثامن عشر م، سنجد مسلماً يكتب بياناً يضمنه وصفات لفحص الرقيق وتجنب السقوط في شرك النخاسين، عنون "لفت الـله الغزالي" وهو أحد رعايا مصر العثمانية بحثه بعنوان يوحي بشدة التقوى: "هداية المريد في تقليب العبيد"[7]، وبما أن حدود الإمبراطورية الإسلامية قد رسمت منذ عهد هارون الرشيد، وأنها لم تعد فاتحة بعد ذلك، بل غدت هي عرضة للغزو، فإن بإمكاننا أن نتساءل عن مصدر هؤلاء العبيد. لقد كانوا مسلمين ولذلك نتساءل: لماذا لم تنظم السلطات الدينية حملات ضد العبودية وهي المهتمة بالإسلام والدفاع عن مبادئه الأساسية؟ إنه سؤال لا مناص من طرحه في كل آن.

الهوامش

(1) المسعودي، مروج الذهب 122/3، ط دار المعارف بـيروت 1983، وانظـر ضـحى الإسـلام 9/1، ط 1961.

(2) بشأن العبودية والجواري في ظـل العباسـيين الأوائـل انظـر أحمـد أمـين، ضـحى الإسـلام، وانظـر الفصل الرابع "العبودية وتأثيرها الثقافي" 79/4، وانظر جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسـلامي 172/2، 27/5، 76، آدم متز، الحضارة الإسلامية ص 295.

(3) ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق، سلسلة نـوادر المخطوطـات 352/4، لجنـة التـأليف والترجمـة والنشر، القاهرة 1954، محمد يوسف النجرمي، العلاقة السياسة والثقافية بين الهند والخلافـة العباسية ص 125.

(4) نفسه ص 379 وما تلاها.

(5) نفسه ص 365 وما تلاها.

(6) نفسه ص 370 وما تلاها.

(7) لفت اللـه الغزالي، هواية المريد في تقليب العبيد، نشر في نفس الكتاب الـذي نشرـ فيـه بحـث ابن بطلان، مكتبة الجنة، القاهرة 1954.

دور الجواري في الحياة:

لقد كان معظم سكان الدول المفتوحة يؤخذون ضمن السبي، وكانت القصور تزخر بالجواري المختلفة العادات والثقافات، لقد كن فارسيات أو كرديات أو رومانيات أو أرمنيات أوأثيوبيات أو سودانيات أو هنديات أو بربريات. وكان هارون الرشيد يملك ألف جارية، أما المتوكل الذي حكم بين 232 و 247 هـ فقد كان له أربعة آلاف جارية[1] وغدا الحريم في كل قصر موضعاً للرفاهية، وكانت أجمل نساء العالم يتخذن من الثقافات المختلفة وإتقان المعارف المتنوعة أوراقاً يغرين بها الخلفاء والوزراء. ذلك إن إغراء هؤلاء الرجال لم يكن رهيناً بالنظرات الفاتنة فحسب، بل كان من اللازم انتزاع اعجابهم في المجالات التي كانت تبهرهم، كالتاريخ والشعر والغناء، ولم يكن بإمكان النساء الجميلات الغارقات في النقاش الجدي، أن يصلن ويحققن الاستمرار في ذلك العالم، ذلك ما أدركته الجواري المحظيات، فأحطن أنفسهن بمعلمين أكفاء. ومن ثم تلقت الخيزران الفقه على يد أحد أشهر القضاة في عصرها لتنال الحظوة لدى المهدي، إضافة إلى ذلك كانت الخبرات الجنسية ورقة الأحاسيس مجالاً حاولت الجواري تطويره، حيث استغلت كل منهن أسوار ثقافتها الخاصة، ولم تكن النساء العربيات الارستقراطيات مؤهلات للصمود أمام المنافسة وخاصة في المجال الأخير، إذ كن محاصرات بالأخلاق المتشددة التي تفرضها الطبقات الحاكمة على نسائها، وهي أخلاق لم تكن الجواري مجبرات على الالتزام بها، ومن ثم فإن إقبال الأسياد عليهن دفع بهن تدريجياً إلى تعميق معرفتهن بالشهوة الذكورية ونزواتها[2].

ولم يمر وقت طويل حتى غدت كل منطقة في العالم الإسلامي مشهورة بخصال نسائها النوعية، وقد حققت نساء المغرب العربي سبقاً كبيرا: "من أراد الجارية للذة فليتخذها بربرية، ومن أرادها خازنة وحافظة فرومية، ومن أرادها للولد ففارسية، ومن أرادها للرضاع فزنجية، ومن أرادها للغناء فمكية"[3]. صدرت هذه النصائح عن خبير في الأمر، إنه طبيب مسيحي يدعى ابن بطلان (توفي سنة 144 هـ) اشتهر في بغداد

لكفاءاته، وزادت شهرته حين كتب بحثاً عن شاري الرقيق، وهو بحث يبعث على الانبهار إذ إنه يقدم نصائح عملية لإفشال حيل النخاسين الذين يزينون الجواري المريضات ويستعملون وسائل بسيطة لإكسابهن مظهراً يوحي بأنهن في كامل صحتهن، أو يغيرون لون شعرهن وبشرتهن حتى يتم الإقبال عليهن: "من ذلك ما يفعلونه في الألوان فتغير البشرة بشيئين، هما: "أما السمراء فإنها تصير ذهبية... وأما الدرية اللون فتصير بيضاء... ومن ذلك ما يكسب الشعور الشقر السواد الحالك... وما يجعد الشعور السبطة... ومن عادة النخاسين إذا أرادوا أن يطولوا الشعور أن يوصلوا في طرفه من جنسه..."[4].

قد تظل بعض هذه الوصفات مفيدة حتى يومنا هذا، وهكذا يجب الاحتياط من أولئك الذين يتوفرون على عيون واسعة لأنهم كسالى أو منحرفون، أما ذوو العيون الغائرة فهم حاسدون، وتدل العيون الزرق على التفاهة، أما الذي تتحرك حدقتاه بسرعة فيجسد القبح ذاته.

كثرة الخلفاء من أبناء الجواري:

يبعث عدد الخلفاء الذين ينحدرون من أمهات جوار على الدهشة في التاريخ الإسلامي، وتستحق هذه الظاهرة بحثاً معمقاً، لأنها تدلنا على بعد بالغ الأهمية في الصراع الطبقي وتنافس الثقافات خلال العصر الإسلامي الذهبي، ألا وهو البعد الجنسي، ويلاحظ ابن حزم بأن "هناك ثلاثة خلفاء فحسب ينحدرون من أمهات حرائر ضمن مجموع الخلفاء العباسيين، أما بالنسبة للخلفاء الأمويين بالأندلس، فليس هناك خليفة واحد من أم حرة"[5]، لقد كانت سلمة أم لخليفة العباسي المنصور أبي المهدي جارية بربرية، أما أمهات المأمون والمنتصر والمستعين والمهتدي فكن جواري رومانيات، وكانت أم المتوكل تركية[6].

ولم تكن هناك ضوابط لعدد الجواري، يقول الطبري في تفسيره بأن واجبات المؤمن تجاه جواريه ليست هي واجباته تجاه الحرائر من نسائه، لأن الجواري يدخلن فيما ملكت أيمانه[7].

الهوامش

(1) المسعودي، مروج الذهب 122/3، ط دار المعارف بيروت 1983، وانظر ضحى الإسلام 9/1، ط 1961.

(2) فيما يخص العبودية والجواري في ظل العباسيين الأوائل انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام، وانظر الفصل الرابع "العبودية وتأثيرها الثقافي" 79/4، وانظر جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي 172/2، 27/5، 76، آدم متز، الحضارة الإسلامية ص 295.

(3) ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق، سلسلة نوادر المخطوطات 352/4، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1954 .

(4) نفسه ص 379 وما تلاها.

(5) ابن حزم، نقط العروس في تاريخ الخلفاء، ضمن كتاب الرسائل، المجلد 11 ص 104.

(6) ابن حزم، رسالة في أمهات الخلفاء، المجلد 11 ص 121.

(7) تفسير الطبري 541/7.

الجواري في قصور الخلفاء:

لقد كان معظم سكان الدول المفتوحة يؤخذون ضمن السبي، وكانت القصور تزخر بـالجواري الـلاتي يقـدمن بثقافـاتهن وغرابـاتهن، وكـن فارسـيات وكرديـات وروممانيـات وأرمنيـات وأثيوبيـات وسـودانيات وهنديات وبربريات. وكان هارون الرشيد يملك ألف جارية، أما المتوكل (حكـم بـين 232 و 247 هــ) فقـد كان له أربعة آلاف جارية[1] وغدا الحريم في كل قصر موضعاً للرفاهيـة، حيـث كانـت أجمـل نسـاء العـالم يتخذن من الثقافات المختلفة وإتقان المعارف المتنوعة أوراقاً يغرين بها الخلفـاء والـوزراء. ذلـك إن إغـراء هؤلاء الرجال لم يكن رهيناً بالنظرات الفاتنة فحسب، بل كان من اللازم انتزاع إعجـابهم في المجـالات التـي كانت تبهرهم، كالفقه والتاريخ والشعر والغنـاء، ولم يكـن بإمكـان النسـاء الجمـيلات، أن يصـلن ويحققـن الاستمرار في ذلك العالم، ذلك ما أدركته الجواري المحظيات، فأحطن أنفسهن بمعلمين أكفاء. ومن ثم تلقت الخيزران الفقه على يد أحد أشهر القضاة في عصرها لتنـال الحظـوة لـدى المهـدي، إضـافة إلى ذلـك كانـت الخبرات الجنسية ورقة الأحاسيس مجالاً حاولت الجواري تطويره، حيث استغلت كل منهن أسـوار ثقافتهـا الخاصة، ولم تكن النساء العربيات الارستقراطيات مؤهلات للصمود أمام المنافسة وخاصة في المجال الأخـير، إذ كن محاصرات بالأخلاق المتشددة التي تفرضـها الطبقـات الحاكمـة عـلى نسـائها، وهـي أخـلاق لم تكـن الجواري مجبرات على الالتزام بها، ومن ثم فإن إقبال الأسياد عليهن دفع بهن تدريجياً إلى تعميق معرفتهن بالشهوة الذكورية ونزواتها[2].

ولم يمر وقت طويل حتى غدت كل منطقة في العالم الإسلامي مشهورة بخصال نسائها النوعية، وقد حققت نساء المغرب العربي سبقاً كبـيرا: "مـن أراد الجاريـة للـذة فليتخـذها بربريـة، ومـن أرادهـا خازنـة وحافظة فرومية، ومن أرادها للولد ففارسية، ومن أرادها للرضاع فزنجية، ومن أرادها للغناء فمكية"[3].

الهوامش

(1) المسعودي، مروج الذهب 122/3، ط دار المعارف بيروت 1983، وانظر ضحى الإسلام 9/1، ط 1961.

(2) بشأن العبودية والجواري في ظل العباسيين الأوائل انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام، الفصل الرابع " العبودية وتأثيرها الثقافي " 79/4، وانظر جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي 172/2، 27/5، 76، آدم متز، الحضارة الإسلامية ص 295.

(3) ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق، سلسلة نوادر المخطوطات 352/4، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1954.

نساء حاكمات

1- قبل الإسلام

بلقيس ملكة سبأ

أشهر الملكات في الجاهلية وردت قصتها في القرآن الكريم قال تعالى:

(**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**) النمل: ٢٣، وفي القرآن الكريم ذكر لحالها وحال قومها، قال تعالى على لسان الهدهد: (**وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللـهِ**) النمل: ٢٤، وكانت بلقيس وقومها أولو قوة: (قالوا نحن أُولوا قوة وألوا بأس شديد والأمر إليك فأنظري ماذا تأمرين)النمل: ٣٣، وكانت وقومها يعبدون الشمس: (**وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللـهِ**) النمل: ٢٤، وهي ذات ذكاء وتدبير وآراء صائبة: (**قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**) النمل: ٣٤ - ٣٥، وقد شعرت بأنها ظلمت نفسها فسلمت أمرها لله رب العالمين: (**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) النمل: ٤٤ ووردت قصتها في التوراة والإنجيل، وفي كتب التاريخ وأساطير الأقدمين، وهي امرأة مثال الطهارة والنبل، ساحرة الملامح، شديدة الفتنة، قوية التأثير. ووصف عرشها تُبَّع بقوله:

عرشُـــها رافـــعٌ ثمـــانينَ باعـــاً — كَلَّلَتْـــــــهُ بجـــــــوهرٍ وفريـــــــدِ
وبِـــدُرٍّ قـــد قَيَّدَتْـــهُ وياقـــو — تٍ بـــــــالتِّبْرِ أيمـــــــا تقييـــــــدِ

كان والدها ملكاً عظيم الشأن، وهو آخر أربعين ملكاً من ملوك اليمن، مات دون وصية فخلفه في حكم اليمن ابن أخيه، وكان ضعيف الخلق سيء السيرة، أضرَّ

بسمعة نساء مملكته، وظل في غيه لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه حتى تعرض لبلقيس، وعندها دبرت له مكيدة أودت بقتله، في حين عجز الرجال عن التخلص منه، وبرهنت على قوة شخصيتها وحسن بلائها، ثم دعت كبار رجال الدولة إلى اختيار ملكٍ لليمن، تتوفر فيه النزاهة والجدارة، إلا أن كبار رجال اليمن وساستها لم يجدوا أحداً أصلح من بلقيس، لما تتصف به من قوة وحكمة، ونادوا بها ملكة علي اليمن.

وهكذا ظفرت بلقيس بأعظم عرش عرفه التاريخ، وكان عرشها مصنوعاً من الزبرجد والمرمر والذهب والياقوت ومختلف الأحجار الكريمة، وقيل إن طول عرشها كان ثلاثين ذراعاً وعرضه ثلاثين، وارتفاعه ثلاثين، وكذلك قيل: إن عرشها كان سريراً ضخماً من ذهب وفضة مرصعاً بالجواهر، وكان في جوف سبعة بيوت، عليها سبعة أبواب، كل بيت داخل الآخر، وعرشها في آخر بيت لها، وكان مقدم عرشها من الذهب مرصعاً باليـاقوت الأحمر والزمرد الأخضر، ومؤخره من فضة مكللاً بضروب من الجواهر واللآلىء، وله أربع قوائم، قائمة من ياقوت أحمر، وأخرى من ياقوت أصفر، وثالثة من زبرجد أخضر، ورابعة من دُرُ أبيض، وصفائح السرير من ذهب، أما تكاليف الكوُة التي تدخل منها الشمس فتسجد لها فتبلغ ثلاثمائة ألف أوقية من الذهب.

ولم يكن عرش بلقيس بالأمر الوحيد الذي بالغ فيه الكتّاب وألفوا حوله القصص والروايات، بل ذكروا من قوتها أنه كان تحت زعامتها أكثر من ثلاثمائة ملك يلتمسون طاعتها، وقيل إن عدد قوات جيشها مئات الآلاف، أما جنودها فآلاف الملايين، وكان لها ثلاث مائة وزير يدبرون شؤون مملكتها.

وكان أهم حدث في حياة بلقيس هو اتصالها بالنبي سليمان الحكيم أحد عظماء العصر، سمعت بلقيس بسليمان ورجاحة عقله، فأرادت الاتصال به وقد بلغها ما يقال عن نبوغه ونبوّته، ورغبت أن تختبره بنفسها، فأرسلت إليه صبياناً في زي فتيات، وفتيات في زي صبيان، حتى يفرق بينهم، وأرسلت له كذلك درة مثقوبة ثقباً

ملتوياً ليدخل فيه خيطاً، وأوعزت لرئيس بعثتها أن يكوّن لها رأياً صحيحاً عن سليمان، فلما عاد منـدوبها أبلغهـا أن سليمان أظهر منتهى الحكمة، وأن الطير والجن في خدمته، وأن غِنى هذا الملك لا يجاريه ثراء اليمن.

وكان سليمان قد أرسل إليها يؤذنها بدينه، ويدعوها إلى سُنَّته، وكتب إليها: (**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بسم الـلـه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) لنمل: ٣٠، فاستجابت له، وهي معجبة به فقصدت زيارته، وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر من أقيال اليمن فقالت لهم: (يا أيها الملأ إني أُلقى إلى كتاب كريم) النمل: ٢٩، وسألتهم أن يجيبوها وقالت: (**يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ**) النمل: ٣٢، أما قومها فتركوا الأمر لها، وأجابوها بقولهم: (**قالوا قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**) النمل: ٣٣، فعرفت ترددهم، ونبهتهم بأخطار ما ينتظرهم من الحرب والقتال، وما تجر عليهم من وبال، وقالت: (**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**) النمل: ٣٤، وأخبرتهم بأنها سترسل له هدية تسر نفسه، فحملت إليه الهدايا من النفائس والأحجار الكريمة، وقصدت سليمان فسارت إليه وسار في ركابها مائة ألف من أمراء اليمن ورحب بها سليمان ترحيباً شديداً، وأعجب بجمالها الفتَّان، ونزلت من قلبه منزلاً كبيراً، وبقيت معه فترة من الوقت لتتعرف على عظمة مملكته، وسر عبقريته، وقيل إن سليمان قد أحبها وتعلق بها، وانتهى هذا الحب بالزواج منها، وقيل إنها أنجبت له ابناً يدعى داود، توفي في حياتهما، وتذكر المصادر الهندية أنها أنجبت منه ولداً سمي ابن الحكيم، خلف بلقيس على عرشها، ورفض أن يكون وريثاً لسليمان، وهناك رواية تقول: إن سليمان أعاد بلقيس إلى وطنها وزوَّجها من تُبَّع ملك همدان، وعاشت في اليمن في دعة وسكون.

وكان من جلائل أعمالها أنها بنت قصر غمدان وسد مأرب، وكـان عملهـا هـذا مـن أعاجيـب الزمـان وروائع الآثار، أما السد فهو معروف مشهور، وصفه الفخر

الرازي بقوله: "إن بلقيس هي التي مدَّت سد مأرب وجعلته طبقات ثلاثاً بعضها فوق بعض" (الفخر الرازي 260/5)، وأما قصر غُمدان فقيل إنه عشرون طبقة بعضها فوق بعض، وفوقها مجلس بُني بالرخام الملوّن يعلوه سقف من رخامة واحدة تشف عما فوقها، وعلى كل ركن من أركانه أسد كأعظم ما يكون من الأسد، إذا هبَّت عليه الريح دخلت من منافذه فاضطربت في صدره فخرجت من فيه كزئير الأسود، وكانت المصابيح توقد في القصر ومن حوله حتى يحسبه المشرف من بعض طرق اليمن برقاً خافقاً أو شهباً متألقة.

هذه المرأة الأسطورة العظيمة المبدعة التي خلدها التاريخ، وماتت وكل حي يموت، فقيل إنها توفيت قبل سليمان ودفنت بتدمر وأُخفي قبرها عن الناس، واختفت عن العالم، ولكنها بقية خالدة على مرور الأزمان والدهور.

المراجع:

- تاريخ ابن الوردي 1/56-57، التيجان في ملوك حمير لابن هشام 137-170، تاريخ الخميس 1/272-282، االبداية والنهاية لابن كثير 2/ 147-149، نهاية الأرب للنويري 14/ 111- 135، أعلام النساء 1/ 142- 148.
- عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ص 38-48. ط دار الرائد العربي، بيروت 1982.
- علي إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب ص 9-11. ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1981 م.
- محمد كامل حسن: سطور مع العظيمات ص 51، ط دار البحوث العلمية، بيروت 1969م.

الـزبَّـاء

ملكة تدمر

توفيت سنة 358 ق هـ

تدمر مدينة واسعة شاسعة بين نطـاق الصـحراء نهضـت بهـا امـرأة مـن العـرب فبسـطت سـلطانها ونشرت أعلامها ما بين مجاهل السودان ومعالم أنقرة من مسالك وممالك، وأمـم وشـعوب، وهـي في طـرف بادية الشام على مدى مائة وخمسين ميلاً مـن دمشـق، ومسـيرة خمسـة أيـام مـن الفـرات، وهـي ملتقـى الغادين والرائحين بين الشام والعراق، قامت فيها الأبنية الفخمة الرائعة من مثل هيكل الشمس أو هيكـل يعل، والقصر الأعظم الذي بلغ ذرعه ألفي ذراع في مثلها، ولا تزال أطلالها باقية في الشام.

في هذه البيئة نبغت الزباء أو زنوبيا، أو زينب وقـد وذاع صـيتها وتوسـعت مملكتهـا، كانـت في أول أمرها مشيرة لزوجها، ثم وصية على ولدها، وفي كلا الأمرين كانت الوحي الملهم واليد الطولى، جمعـت بـين الجمال وعذوبة المنطق وشدة البأس في الحروب.

وهي من شهيرات نساء العرب، وأجلهـن خلقـاً، وأحـزمهنَّ أمـراً، وأبعـدهن نظـراً، وأوسـعهن إدراكـاً وحكمة، وأكثرهن مقدرة ومهارة، وصفها المـؤرخ الرومـاني (تربيلـوس) بأنهـا أجمـل ملكـة عرفهـا التـاريخ، وكانت سمراء اللون واسعة العينـين، أسـنانها كـالؤلؤ، وجسـمها ممشـوق في قـوة، وكانـت تلـبس العمامـة كالرجال، بل هي خوذة مرصعة بالدر والياقوت وتتدلى فوق غلالتها أهداب من الحريـر الأُرجـواني، ولهـا سيطرة لا حدُ لها على كافة الرجال في مملكة تدمر، تلك هي الزَبَّاء بنت عمرو بـن حيَّـان، التـي تربعـت على عرش الجزيرة بالعراق حقبة من الزمان.

اختلف المؤرخون في نسبها وتضاربت أقوالهم، فقيل إنها ابنة زعيم عربي اسمه عمرو بن ضـارب بـن حسان، وقيل إنها من نسل سليمان الحكيم، وروي عنها

أنها قالت إنها منحدرة من نسل كليوباترا، وكانت هي تزعم أنها من سلالة ملوك مصر المقدونيين. والزباء كما يذكر المؤرخون امرأة من ملوك العماليق.

تثقفت زنوبيا بالثقافة اليونانية، وكانت تحسن عدة لغات، منها الآرامية والقبطية، وكان لها اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب، وروي أنها ألفت كتباً عن مصر، وكانت شديدة الإعجاب بتاريخها.

كانت جميلة في جمال كليوباترا إلا أنها تفوقها في الخلق والحمية، وكان ذكاؤها نادراً، وهي متفقهة في اللاتينية واليونانية والمصرية، وقيل أن فلوتجنس المشهور أستاذها، وهي مولعة بالقراءة وراغبة في الإطلاع، قرأت كتب هومر وإفلاطون وغيرهم، وهي تكتب اليونانية بسهولة، وجمعت تاريخ الشرق ونسقته لنفسها.

وكما كانت مشهورة بجمالها وثقافتها، كانت مشهورة بشجاعتها ودهائها وبأسها، تحب الصيد والمغامرة، وتتبع زوجها في الصيد ولا ترهب الحيوانات المفترسة، أسداً كان أو نمراً. ويرجع الفضل في انتصارات زوجها إلى بأسها وحصافتها وبعد نظرها، فلم تكن فيها صفة الضعف، ولا تلك العواطف التي تنطوي عليها الملكات.

ولما حكمت عاملت الرعية بالعدل وسارت فيهم سيرة حكيمة، فكانت إذا اضطرت أن توقع جزاءً، أضعفت في نفسها عوامل الرحمة كما أنها إذا رأت محلاً للعطف، قاومت عوامل الانتقام فيها، فهي في الحالين تصدر عن إرادة تخضع النفس أمامها للعقل، وهي في غير ذلك كانت تعطف على الرعية عطفها على الأمراء.

وكانت تنحو في سياستها المالية للدولة إغداق المال على الشعراء والفلاسفة والفنانين والعظماء، وتستقدمهم من البلاد النائية، وتجزل العطاء لحاشيتها عند المناسبات.

وتوسعت زنوبيا في حكمها فأضافت إلى ممتلكات زوجها بلاد مصر. فأصبحت مملكتها تمتد من الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك القدس وإنطاكية ودمشق وبلدان أخرى مشهورة بالتاريخ. ولم يرض إمبراطور روما أن يعترف بها ملكة على ولايات زوجها فبعث إليها بجيش مرة بعد مرة، فكانت تهزمه في كل مرة شر هزيمة.

تزوجت من (إودِيناتوس ستيموس) الذي يلقب بملك الملوك، وكان سيد الشرق الروماني، وامتد سلطانه إلى ما بعد سوريا، ولما توفي زوجها اعتلت هي العرش وصية على ابنها الصغير. وعندها انتهز الامبراطور (جالينوس) الفرصة لإخضاع مملكة تدمر، فأرسل لها جيشاً جراراً، وبالمقابل قادت زنوبيا جيشها ممتطية جوادها، وقاتلت جيش جالينوس وأنزلت به شر هزيمة.

وبعد هذا الانتصار الباهر أرسلت عدداً كبيراً من التجار إلى مصر فعملوا على إنشاء علاقات تجارية بين مملكة تدمر ومصر، وأشاعوا بأن الملكة زنوبيا من سلالة كليوباترا، وأنها تسعى إلى إنقاذ المصريين من حكم الرومان، وسرعان ما تحدث الشعب المصري عن زنوبيا كما يتحدث عن بطلة أسطورية، حتى إذا ما سنحت الفرصة جهزت زنوبيا جيشها وقادته فدخلت مصر فاتحة، فقابلها المصريون بالترحاب، وانهزمت فلولُ الجيش الروماني شر هزيمة، ولم تكتفِ الملكة زنوبيا بانتصارها في مصر، بل واصلت حروبها فتوسعت مملكتها حتى شملت ضفاف البسفور، فأطلقت على المملكة اسم "الإمبراطورية الشرقية".

وكان أهم حادث أثّر في مجرى حياتها، رغبتها في الانتقام من جذيمة الأبرش ملك العراق الذي قتل والدها، وقد نصحتها أختها ألا تحاربه لأنه رجل قوي، لا يُنتظر أن تظفر به، إلا عن طريق الحيلة والدهاء، فأرسلت الزبّاء خطاباً إليه، بعد أن استمعت إلى نصيحة أختها، تقول له إنها لم تجد خيراً في اعتلاء النساء عرش المملكة، وأنها لا تجد من يشغله أكفأ منه، ودعته إليها كي يضم ملكها إلى ملكه، ويصل بلادها ببلاده، وتسلمه مقاليد أمرها.

ولما وصل هذا الكتاب إلى جذيمة الأبرش، ووفد عليه رسلها استخفه الطمع، وأغراه النفوذ وحب السيطرة، فجمع أصحاب الرأي في الدولة، وعرض عليهم ما رأته الزبَّاء، فوافقوا جميعاً على أن يذهب إليها جذيمة، عدا قصير بن سعد اللخمي، وكان من أدهى رجال عصره، إذ قاّل: هذا رأي فاتر، وغدر ظاهر، فإن كانت صادقة فتحضر إليك، وإلا فلا تمكنها من نفسك وتقع في شراكها، وقد قتلتَ أباها. ولكن جذيمة لم يوافق على رأي قصير، ورحل إلى الزباء في موكب حافل، واستقبلته رسل الزبَّاء بالبِشر والترحاب، وسار جذيمة تحيط به الخيل والجند من كل ناحية، حتى دخل على الزباء، فقالت له: أشوار عروس ترى؟ فقال: أم غدراً أرى، فسقته خمراً حتى ثمل، وأمرت بنزف دمه حتى مات.

وخَلَف جذيمة على الملك، عمرو بن عدي، فقال له قصير: تهيأ واستعد ولا تترك دم خالك، فقال: وكيف لي بها؟ فطلب منه قصير أن يجدع أنفه، ويضربه على ظهره حتى تظهر آثار بارزة في ظهره، وقال العرب في ذلك: "لأمر ما جدع قصير أنفه".

أما الزباء فقد سألت جارية عندها عن مصيرها، فقالت لها: أرى هلاكك بسبب غلام غير أمين، هو عمرو بن عدي، ولن تموتي بيده، ولكن بيدك، فخشيت الزبَّاء عَمراً، واتخذت لها نفقاً في المجلس الذي كانت تجلس فيه، يصل إلى حصن لها في داخل مدينتها.

خرج قصير كأنه هارب من عمرو، وحين دخل على الزباء قالت له:

ماذا أرى بك يا قصير؟ قال: فعل بي ذلك عمرو بن عدي، فأقبلتُ إليك، فأكرمته الزباء، وأقام عندها حتى وثقت به، واطمأنت إليه، فطلب منها أن تسمح له بالذهاب إلى العراق، لأن له فيها أموالاً وفيرة وثياباً كثيرة وتجارة عظيمة، يريد إحضارها فأعطته الزباء مالاً وعبيداً!. ورحل قصير إلى العراق، وعندما وصل إلى الحيرة، ودخل على عمرو بن عدي، فأخبره بما حدث وما فعله مع الزباء،

وطلب منه أن يعطيه من كل ما خف وزنه وغلا ثمنه من التحف والطرائف، حتى يتمكن من إغراء الزباء، فيأخذ بثأره منها.

ولما رجع قصير إلى الزباء بما يحمل، اعجبت كل الإعجاب بما أحضر لها من تحف، وزادت ثقتها به، وجهزته مرة أخرى، فجلب أكثر مما جلبه في المرة السابقة، وحين رجع للمرة الثالثة، قال لعمرو بن عدي: اجمع لي ثقات أصحابك، فإذا دخلوا على الزباء أقمتهم على باب نفقها، وخرجت الرجال فصاحوا بأهل المدينة، فإن قاتلهم قاتلوه، وإن أقبلت الزباء تريد الاحتماء بالنفق، قتلتها بالسيف.

جمع عمرو رجاله، وجهزهم على النحو الذي رتبه قصير، وحين اقترب الركب من المدينة التي تقيم فيها الزبّاء، تقدم قصير وبشرها بما أحضره، وأخذ يصف لها ما جلبه لها من طرائف وتحف نادرة، ولما أبصرت الزباء الجمال قادمة، تكاد قوائمها تئن، قالت لقصير:

ما للجمال مشيها وئيد أجندلاً يحملن أم حديدا

أم صرفاناً تارزاً شديدا

فقال قصير في نفسه:

بل الرجال قُبْضاً قعودا

ودخلت الإبل المدينة، وأوقف قصير عمراً على باب نفق الزباء، وخرج الرجال، وأخذوا ينهبون ويقتلون من في المدينة، ولما أحست الزباء بما حدث هربت إلى النفق، فوجدت عمرو بن عدي واقفاً ببابه، فمصّت خاتمها وكان فيه سم، وقالت: "بيدي لا بيد عمرو"، وقتلها عمرو بالسيف، ونهب مدينتها وسبى أهلها، ثم عاد إلى بلاده، بعد أن ثأر لنفسه.

هذه الرواية العربية، وهناك رواية أخرى تزعم أن الإمبراطور أورليانوس هو الذي قضى على مملكتها فقد عبأ هذا جيشه الكبير وهاجم زنوبيا، فحدثت معارك كثيرة بين الجيشين، فهزمها في مدينة حمص، ثم حاصر تدمر، وتسللت زنوبيا من

الحصار بجوادها لكي تعود بنجدة من الفرس، ولكن بعض الخونة وشَوا بها فأُسِرت وهـي تهـم بعبـور نهـر الفرات.

وحكم على الأميرة البطلة بالإعدام، وأتوا بها مكبلة بالسلاسل المصنوعة من الذهب، وأجبروهـا عـلى السير بين الجماهير إلى روما لإذلالها في اليوم الذي احتفلوا فيه بالنصر، ولكنها سارت مرفوعة الرأس شامخة الأنف، حتى إن الشعب الروماني لم يتمالك نفسه من التصفيق لها على الرغم من أنهـا كانـت عدوتـه، وإذ ذاك أحجم أورليانوس عن إعدامها واكتفى بسجنها.

وقد اختلف المؤرخون في حياتها بعد الأسر، فقال بعضهم إنها قتلت نفسها جوعاً حتى لا ترى بعينها مصرعها، ومصرع بلادها، وقال بعضهم إن الإمبراطور وهبها داراً بحديقـة عاشـت فيهـا محترمـة، وزوجـت بناتها من أشراف العائلات الرومانية، وصار ابنها الأصغر ملكاً على جزء من أرمينيا.

ولا نعرف بالضبط السنة التي ماتت فيها هـذه المـرأة العظيمـة، ولكـن بعـض المـؤرخين يقـدر أنهـا توفيت سنة 358 قبل الهجرة.

المراجع:

لأذكياء لابن الجوزي: 1178- 122، الحور العين - نشوان الحميري: 354-358، أعلام النسـاء 1/ 419-428، الروضة الفيحاء: 307- 310، الأغاني 14/ 70، 16/ 90 ط ساسي، تاريخ ابن الـوردي 1/ 59- 60، تـاريخ أبي الفداء 1/ 69، مجمع الأمثال: 205- 208،جمهرة أمثال العرب: 62. العرب قبل الإسـلام - جـواد عـلي 3/ 133- 117، تاريخ العرب - فيليب حتي1/97-102.

دَلُّوكة بنت الزَبّاء

كانت صاحبة عقل وكمال، وتجارب ومعرفة، أما زمنها فكانت في زمن موسى عليه السلام، ولما أغرق الله فرعون، كان لها من العمر فيما قيل مائة وستون سنة.

جاء في كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: أنه لما أغرق الله فرعون في النيل هو وجنوده، وأشراف أهل مصر وأكابرهم ووجوههم، وكانوا أكثر من ألفي ألف، بقيت مصر خالية من الأشراف، ولم يبق إلا العبيد والأجراء والنساء، وصارت المرأة تعتق عبدَها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرَها، فاجتمع أشراف مَنْ بمصر من النساء وعقدن رأيهن على أن يولين منهن واحدة، فاستقر رأيهن على أن يولين عليهن دلُوكة بنت الزباء، فملكوها عليهنّ، وخافت أن يتناولها ملوك الأرض، فجمعت نساء الأشراف، وقالت لهن: إنّ بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد، وقد هلك أكابرنا وأشرافنا، وذهب السحرة الذين كنا نتقوى بهم، وقد رأيت أن أبني حصناً أحدق به جميع بلادنا، وأضع عليه المحارس، فبنت جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر كلها حتى المزارع، والمدن والقرى، وجعلت دونه خليجاً يجري فيه الماء، وأقامت عليه القناطر، وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، وجعلت على كل محرس رجالاً وأجرت عليهم الأرزاق، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس فإذا أتاهم أحد يخافونه ضربوا الأجراس من أي جهة كانت فيتحصنون، وفرغت من بنائه في ستة أشهر.

وكان عندهم عجوز ساحرة اسمها تدورة، كانت السحرة تعظمها، وتقدمها في السحر، فأرسلت إليها دلّوكة تقول: إنَّا قد احتجنا إلى سحرك، فاعملي لنا شيئاً نغلب به مَنْ حولنا، فقد كان فرعون مع ملكه محتاجاً إليكِ، فقدمت إليهم وعملت بيتاً من حجارة في وسط مدينة منف، وجعلت له أربعة أبواب، وصوّرت فيه صور الخيل والبغال والحمير والسفن والرجال، وقالت لهن: هذا يغنيكنَّ عن الحصن، فمن أتاكم

من أية جهة تتحرك الصور من تلك الجهة التي يأتون منها، فما فعلته الصور من شيء أصـاب العـدو ذلـك في أنفسهم.

ولما بلغ الملوك ولاية النساء طمعوا فيهنَّ، وإذا دنوا منهن تحركت تلك الصور وأصابت ذلك الجـيش الذي أقبل، من قطع الرؤوس وقلع العيون، وبقر البطون فيعودون بالخيبة[1].

وملكتهم دلَوكـة عشرين سنة، حتى بلغ من أبناء أكابرهم رجلٌ يقال له دركون بن بطلوس، فملَّكوه عليهم.

الهوامش

(1) لا شك أن هذا الكلام ضرب من الخرافة، ولا يصدقه العقل.

المراجع:

الروضة الفيحاء: 297-298، نهاية الإرب 1/ 392-393، مسالك الأبصار لابن فضل اللـــه العمـري 1/ 239، آثار البلاد وأخبار العباد: 139، حسن المحاضرة 1/ 28.

النضيرة بنت الساطرون

والساطرون هو الضيزن، من قبيلة قضاعة، وهو ملك مدينة الحَضَر، وأصله من الجرامقة، وكان ظالماً جباراً، كان يشن الغارات على القبائل، فبلغ خبره إلى الملك كسرى سابور، فتجهز بالعسكر سابور وقدم إلى حرب الساطرون، وحاصر مدينة الحضر أربع سنين، وقيل سنتين. ولم يقدر سابور على أخذها، فاتفق أنّ النضيرة بنت الضيزن، حاضت وخرجت إلى ربض المدينة، وهذه عادتهم، وكانت من أجمل النساء، فنظرت إلى سابور، وهو أجمل أهل زمانه، فعشقته وعشقها، وأرسلت إليه: ما تجعل لي إذا ملكتك البلاد؟ فقال: أرفع قدرك، وأحكمك على نسائي، فقالت له: خذ حمامة ورقاء مطوقة، فاكتب على رجلها من دم حيض بكر زرقاء، ثم ارسلها فإنها تقع على السور فينهدم، ففعل سابور ذلك، وانهدم السور وملك المدينة سابور، وقتل الضيزن وأصحابه، وكان هذا طلسم ذلك البلد، وأخرب المدينة وهي إلى الآن خراب، وأخذ النضيرة فأعرس بها بعين التمر، فلم تزل ليلتها تتضور وتتألم، فالتمس ما يؤلمها ويؤذيها، فإذا ورقة آس ملتزقة بعكنة من عكن بطنها[1]، فقال لها: ما كان يغذوك به أباؤكِ؟ قالت: بالزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل وصفو الخمر. فقال لها: إذن هذا كان منك جزاءً لأبيك، قتلتهِ وقتلتِ أصحابه، وأخربت دياره. فأمر رجلاً من خدّامه، فركب فرساً جموحاً ثم عصب غدائر الضفيرة بذنب الفرس واستركضها، فقطعها قطعاً وماتت.

الهوامش

(1) عكن البطن: أطواؤها من السمن.

المراجع:

- الروضة الفيحاء 306-307، أعلام النساء 3/ 1557-1558، الأغاني 2/ 141- 144 ط دار الكتب، تاريخ الطبري 1 ق 2: 829-830.

2- بعد الإسلام:

سجاح بنت الحارث التميمية

توفيت سنة 55 هـ

كانت صاحبة نيرنجات وشعبذات[1]، وبلغ من أمرها أنها ادَّعت النبوة، وذلك في العام الذي توفي فيه رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ، وتبعها بنو عمها، وأظهرت لهم أنها أنـزل عليهـا سـورة مثـل القـرآن، فمنها: "يا أيها المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش يبغون"، فتبعها بنـو عمهـا بنـو تميـم وأخوالها بنو تغلب وبنو ربيعة، وعظمت عندهم، وكثرت جيوشها، واشتهرت بين النـاس، وأظهـرت دعوتهـا وقصدت مسيلمة الكذاب، وكان في اليمامة مقامه، وقومه بنو حنيفـة، وهـو الـذي قـدم عـلى النبـي صـلى اللـه عليه وسلم في وفد بني حنيفة، وأسلم وأمر لهم النبي صلى اللــه عليـه وسـلم لكـل واحـد بخمـس أواقٍ من الفضة، فقال مسيلمة: إن جعل لي هذا الأمر من بعده اتبعته، فبلغ ذلك رسول اللـه صلى اللــه عليه وسلم ، فقال: لو سألتني هذا ما أعطيتك. وكان بيده عسيب نخل. فلما رجـع عـدو اللــه إلى مكانـه ارتد وادَّعى النبوة استقلالاً، ثم مشاركة مع النبي صلى اللـه عليه وسلم .

وجاء في مختصر ابن الوردي[2]: لما قتل حمزة رضي اللـه عنه، قال بعضهم: ويل لوحشي من النار، فقال صلى اللـه عليه وسلم : أما حمزة فأجله قد انقضى، وأما وحشي فسوف يدرك الشرف من بعده. فقالوا: كيف يا رسول اللـه؟ قال: هو يقتل مسيلمة الكذَّاب. فكان كما قال، ولما قربت سجاح من اليمامة خرج إلى قتالها مسيلمة، ونزل قريباً منها، ثم أرسل لها يريد الاجتماع بها فقبلت ذلك، وأرسلت تستدعيه، فأمرها أن تبعد قومها، ففعلت، فضرب لها مسيلمة قبة مبخرة، بخَّرها بالعود والعنبر والمسك وطيبها، وسبب ذلك الطيب أن النساء إذا شممن رائحة الطيب هجن للجماع، فسارت سجاح إليه، دخلت القبة، واجتمعت به تحت القبة، وقالت له: ما أوحي إليك؟ فقال: "ألم ترَ كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحشا"[3] ثم قالت: وما أنزل عليك أيضاً؟ قال: "إن اللـه خلق للنساء أفراجاً، وجعل

الرجال لهن أزواجاً...... ثم يُخرج ما يشاء إخراجاً"، فقالت: أشهد أنك نبي حق. فقال: هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب!؟ قالت: نعم. فقال يرتجز[4]:

ألا قومي إلى النيكِ	فقد هُيئَ لكِ المضجعْ
وإن شئتِ ففي البيتِ	وإنْ شئتِ ففي المخدعْ
وإنْ شئتِ سلقناكِ	وإنْ شئتِ على أربعْ
وإن شئتِ بثلثيهِ	وإنْ شئتِ بهِ أجمعْ

قالت: بل به أجمع، قال: بذلك أوحي إليّ، فأقامت عنده ثلاث ليالٍ، ثم خرجت من عنده، وقدمت إلى قومها، وهم لها منتظرون، فلما دنت منهم سألوها عنه، فقالت: وجدته نبياً حقاً فاتبعته وصدقت به. ثم بعث مسيلمة يخطبها من قومها فزوجوه إياها، وطلبوا مهرها منه. فقال لهم: قد وضعت عنكم صلاة العصر، وذلك لزيادة تأكيدها بالفريضة، لقوله تعالى: (**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**)، قيل: هي صلاة العصر فبنو تميم -كما زعموا- لا يصلون العصر، ويقولون: هذا مهر كريمتنا، ودخل عليها مسيلمة وصبَّ نبوتَهُ في رحمها. ولم تحمل منه. وقُتل مسيلمة الكذاب في أول خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وكان لمسيلمة نيرنجات، وبذلك اغتر قومه. ومن أقواله: "أخرج لكم حنطةً وزواناً، ورطباً وتمراناً".

ولما قُتل مسيلمة الكذاب انتقلت سجاح إلى أخوالها بني تغلب، وقد ذهبت نبوتها بقتل زوجها، وأقامت في بني تغلب، فلما ولي الخلافة معاوية، ونفى بني تغلب أسلمت سجاح، وانتقلت إلى البصرة، وأقامت هناك إلى أن توفيت سنة 55 هـ

الهوامش

(1) النيرنجات: النيرنج: أُخَذ تشبه السحر وايست بحقيقة، والنيرج: النمّام، ونورج: الرجل اختلف إقبالاً وإدباراً، وكذا في الكلام وهي النميمة والمشي بها، والكلمة فارسية (نيرنك) ومناها الحيلة والمكر والسحر والطلسم. "معجم لألفاظ الفارسية المعربة ص 155".

(2) تاريخ ابن الوردي 1/ 141-142.

(3) لم يرد هذا القول في تاريخ ابن الوردي ترفعاً كما ذكر.

(4) الطبري 3 / 273 ط دار المعارف.

المراجع:

الروضة الفيحاء: 313-316، تاريخ الطبري 3/ 263، 273، تاريخ ابن الوردي 1/ 141-142، أعلام النساء 2/ 580-583، الإصابة، النساء ت 610، الأعلام 122/3، فتوح البلدان 1/ 118، الدر المنثور: 236،

الخيزران

توفيت سنة 173 هـ

لا ندري هل الخيزران جارية أم رئيسة دولة!؟ هي زوجة المهدي الخليفة العباسي الثالث الذي حكم بين سنة 158 و 169 هـ وابنها البكر الهادي، وابنها الأصغر الذي كانت تحبه حباً شديداً وكان يبادلها نفس الشعور وهو هارون الرشيد، وحين أصبح الرشيد خليفة، اعترف بمواهب أمه، وبين للعالم الإسلامي بأن تقاسم الحكم مع امرأة ليس أمراً مخجلاً إذا كانت هذه الأخيرة تتوفر على قوة التمييز التي تمتلكها الخيزران، بيد أن هارون الرشيد لم يفعل أكثر من كونه أثبت الحدود التي تقيد امرأة الحريم سواء كانت - أو حاكمة.

ولدت الخيزران من أبوين حرين في منطقة من مناطق اليمن تدعى جرش، ويتفق المؤرخون بهذا الشأن ما عدا ابن حزم الذي يزعم أنها من أب عربي وأم أجنبية[1]

وصلت الخيزران التي كانت من أصل عربي حسب أغلب المؤرخين إلى قصر بغداد كجارية، وإنها قدمت بغداد برفقة بدوي وبيعت في مكة، ومن نخاس إلى آخر وجدت نفسها ذات يوم في قصر الخليفة المنصور أ_ المهدي، أثارت انتباه الخليفة منذ العبارات الأولى التي تفوهت بها حين سألها عن أصلها، وهكذا وجدت الخيزران نفسها في حضرة ذلك الذي سيضع الإمبراطورية رهن إشارتها بعد توليه الخلافة، والخيزران لم تصدق الخليفة المنصور بأنها الوحيدة في أسرتها، ولم تكشف وجود أمها وأختيها وأخويها إلا بعد أن أمنت مستقبلها ووضعت ابنيها، وحين استقدمت أسرتها الفقيرة من اليمن إلى قصر بغداد عوَّضت ما فاتها.

ويبدو أن إغراء الرجال الأقوياء كان من اختصاص العائلة، إذ إن أسماء وهي إحدى أختيها حاولت أن تسرق منها المهدي، ولكنه عاد إليها ثانياً، أما أختها سلسل فقد رمت شباكها على أمير آخر حيث تزوجت من جعفر أخي الخليفة المهدي، وأخيراً عين أخوها غطرف والياً على اليمن.

إذا كانت الخيزران محظية المهدي، فإنها لم تكن المرأة الوحيدة في حياته، ليست هناك ضوابط لعدد الجواري، يقول الطبري في تفسيره بأن واجبات المؤمن تجاه جواريه ليست هي واجباته تجاه الحرائر من نسائه، لأن الجواري يدخلن فيما ملكت أيمانه[2]. ومن الجواري اللآتي غارت منهن الخيزران، جارية تدعى **مكنونة**، لقد كانت جميلة ورشيقة، وكانت معروفة كمغنية في المدينة التي كانت مسقط رأسها، اشتراها المهدي عندما كان ولياً للعهد مقابل مائة ألف درهم[3]، وقد كان المهدي معجباً بها إلى حد أن الخيزران ستعترف فيما بعد "ما غرت من أحد من النساء مثلها"[4]، وقد اشترى إبراهيم بن المهدي الجارية مكنونة بثلاثمائة دينار، وعلمها حتى بلغ سعرها ثمانية آلاف دينار، وبعد سنوات سمع الخليفة المعتصم بمكنونة ومواهبها فعرض على إبراهيم ستين ألف دينار.

ومن ثم ندرك بأن الخيزران كانت تخشى منافسة الجواري ولا تأبه لمنافسة زوجة المهدي الارستقراطية التي جردتها الخيزران من كل امتيازاتها، بما في ذلك تعيين أبنائها ولاة للعهد من طرف المهدي.

ويمكن القول بأن الانقلاب الذي قادته الخيزران يتمثل في كونها دفعت بالمهدي إلى أن يعين أبناءها هي ولاة للعهد من دون سائر أبنائه من النساء الأخريات، بما في ذلك أبناؤه من زوجته الارستقراطية الأميرة ريطة، وهي ابنة عمه، إذ إن أباها هو الخليفة السفاح مؤسس الدولة العباسية، وقد تزوجها المهدي سنة 144 هـ وقبل ذلك بقرن لم يكن الأمويون يسمحون لأبناء الجواري بأن يصبحوا خلفاء[5] وكان من المفروض أن ينحدر الخليفة من أم حرة، ومن ثم ذكّر الخليفة هشام بن عبد الملك يزيد بن علي بأصله من من جهة الأم حين علم بطموحه إلى الخلافة[6].

وقد حاول ابن عبد ربه الذي أفرد جزءاً من مؤلفه العقد الفريد للنساء، أن يفهم ظاهرة صعود الجواري، وكيف أنهن تمكن من زعزعة المجتمع العربي الذي ظل

رغم الإسلام ارستقراطياً ونخبوياً إلى حد كبير. وبعد ذلك بفترة قصيرة نشـهد علـو مكانـة الجـواري وظهـور شعر وأمثال ضد النساء الحرائر.

استطاعت الخيزران أن تنال موافقة المهدي على تعيين ابنيها وليين للعهد، وقد عـين في البدايـة ابنـه منها موسى الهادي رسمياً ولياً للعهد سـنة 159هـ وفي السـنة نفسـها أعتـق الخيـزران وتزوجهـا، ذلـك أن الإسلام في إطار محاربته للعبودية، فرض على الرجل عتق الجارية قبل الزواج منها، وبعد ذلـك بإمكانـه أن يبني عليها بعقد كما جرت العادة، أما قبل العتق فهي أم ولد، على خلاف المرأة الحرة التـي كانـت تلقـب بأم البنين، من المظاهر التي استحدثها الإسلام بهذا الشأن، إعلانه أن ابن أم الولد أي الجاريـة مـن أب حـر ويتمتع هو الآخر بحريته، وأن بإمكان الأم أن تتحرر هي الأخرى نسبياً، حيث إنها ترتقي إلى وضـع أفضـل بكثير، فتغدو أماً للأولاد، بمعنى أنه لا يعود من حق زوجها أن يبيعها بعد وضعها لطفل منه، وأنهـا تصـبح حرة بعد وفاته، ولا تورث من طرف ورثته كما كان عليـه الأمـر قبـل الإسـلام، وكـان لأبنـاء أم الولـد نفـس الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها أبناء الحرائر، بحيث أنهم يرثون عن أبيهم بالمساواة مـع بـاقي الأبنـاء، طبقاً لتعاليم الشريعة، ومن ثم اطمأن هذا ذات يوم في قصر ـ الخليفـة المنصـور أبي المهـدي، أثـارت انتبـاه الخليفة منذ العبارات الأولى التي تفوهت بها حين سألها عن أصـلها، وهكـذا وجـدت الخيـزران نفسـها في حضرة ذلك الذي سيضع الإمبراطورية رهن إشارتها بعد توليه الخلافة، والخيزران لم تصدق الخليفة المنصور بأنها الوحيدة في أسرتها، ولم تكشف وجود أمهـا وأختيهـا وأخويهـا إلا بعـد أن أمنـت مسـتقبلها ووضـعت ابنيها، وحين استقدمت أسرتها الفقيرة من اليمن إلى قصر بغداد عوَّضت ما فاتها.

ويبدو أن إغراء الرجال الأقوياء كان من اختصاص العائلة، إذ إن أسماء وهي إحـدى أختيهـا حاولـت أن تسرق منها المهدي، ولكنه عاد إليها ثانياً، أمـا أختهـا سلسـل فقـد رمـت شـباكها عـلى أمـير آخـر حيـث تزوجت من جعفر أخ الخليفة المهدي، وأخيراً عين أخوها غطرف والياً على اليمن.

إذا كانت الخيزران محظية المهدي، فإنها لم تكن المرأة الوحيدة في حياته، ليست هناك ضوابط لعدد الجواري، يقول الطبري في تفسيره بأن واجبات المؤمن تجاه جواريه ليست هي واجباته تجاه الحرائر من نسائه، لأن الجواري يدخلن فيما ملكت أيمانه[7].

ومن الجواري اللآتي غارت منهن الخيزران، جارية تدعى مكنونة، لقد كانت جميلة ورشيقة، وكانت معرفوفة كمغنية في المدينة التي كانت مسقط رأسها، اشتراها المهدي عندما كان ولياً للعهد مقابل مائة ألف درهم[8] وقد كان المهدي معجباً بها إلى حد أن الخيزران ستعترف فيما بعد "ما غرت من أحد من النساء مثلها"، وقد اشترى إبراهيم بن المهدي الجارية مكنونة بثلاثمائة دينار، وعلمها حتى بلغ سعرها ثمانية آلاف دينار، وبعد سنوات سمع الخليفة المعتصم بمكنونة ومواهبها فعرض على إبراهيم ستين ألف دينار.

ومن ثم ندرك بأن الخيزران كانت تخشى منافسة الجواري ولا تأبه لمنافسة زوجة المهدي الارستقراطية التي جردتها الخيزران من كل امتيازاتها، بما في ذلك تعيين أبنائها ولاة للعهد من طرف المهدي.

ويمكن القول بأن الانقلاب الذي قادته الخيزران يتمثل في كونها دفعت بالمهدي إلى أن يعين أبناءها هي ولاة للعهد من دون سائر أبنائه من النساء الأخريات، بما في ذلك أبناؤه من زوجته الارستقراطية الأميرة ريطة، وهي ابنة عمه إذ إن أباها هو الخليفة السفاح مؤسس الدولة العباسية، وقد تزوجها المهدي سنة 144 هـ وقبل ذلك بقرن لم يكن الأمويون يسمحون لأبناء الجواري بأن يصبحوا خلفاء[9]، وكان من المفروض أن ينحدر الخليفة من أم حرة، ومن ثم ذكّر الخليفة هشام بن عبد الملك يزيد بن علي بأصله من من جهة الأم حين علم بطموحه إلى الخلافة[10].

وقد حاول ابن عبد ربه الذي أفرد جزءاً من مؤلفه العقد الفريد للنساء، أن يفهم ظاهرة صعود الجواري، وكيف أنهن تمكن من زعزعة المجتمع العربي الذي ظل

رغم الإسلام ارستقراطياً ونخبوياً إلى حد كبير. وبعد ذلك بفترة قصيرة نشهد علو مكانة الجواري وظهور شعر وأمثال ضد النساء الحرائر.

استطاعت الخيزران أن تنال موافقة المهدي على تعيين ابنيها وليين للعهد، وقد عين في البداية ابنه منها موسى الهادي رسمياً ولياً للعهد سنة 159هـ وفي السنة نفسها اعتق الخيزران وتزوجها، ذلك أن الإسلام في إطار محاربته للعبودية، فرض على الرجل عتق الجارية قبل الزواج منها، وبعد ذلك بإمكانه أن يبني عليها بعقد كما جرت العادة، أما قبل العتق فهي أم ولد، على خلاف المرأة الحرة التي كانت تلقب بأم البنين، من المظاهر التي استحدثها الإسلام بهذا الشأن، إعلانه أن ابن أم الولد أي الجارية من أب حر ويتمتع هو الآخر بحريته، وأن بإمكان الأم أن تتحرر هي الأخرى نسبيا، حيث إنها ترتقي إلى وضع أفضل بكثير، فتغدو أماً للأولاد، بمعنى أنه لا يعود من حق زوجها أن يبيعها بعد وضعها طفلاً منه، وأنها تصبح حرة بعد وفاته، ولا تورث من طرف ورثته كما كان عليه الأمر قبل الإسلام، وكان لأبناء أم الولد نفس الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها أبناء الحرائر، فهم يرثون عن أبيهم بالمساواة مع باقي الأبناء، طبقاً لتعاليم الشريعة، ومن ثم اطمأنت الجواري إلى أن بإمكان أبنائهن أن يرثوا كل شيء بما في ذلك العرش.

لما توفي المهدي سنة تسع وستين ومائة، بويع بالخلافة ولدها موسى الهادي، وكان طويلاً جسيماً، ولما استقر موسى بالخلافة همَّ بقتل أمه الخيزران، وقتل أخيه الرشيد، فاتفقت الخيزران مع ولدها الرشيد، وقتلوا موسى الهادي سنة سبعين ومائة، وقيل مات بقرحة، وكانت خلافته سنة وشهراً.

كثرة الخلفاء من أبناء الجواري:

إن عدد الخلفاء الذين ينحدرون من أمهات جوار يبعث على الدهشة في التاريخ الإسلامي، وتستحق هذه الظاهرة بحثاً معمقاً، لأنها تدلنا على بعد بالغ الأهمية في الصراع الطبقي وتنافس الثقافات خلال العصر الإسلامي الذهبي، ألا وهو البعد الجنسي، ويلاحظ ابن حزم بأن "هناك ثلاثة خلفاء فحسب ينحدرون من أمهات

حرائر ضمن مجموع الخلفاء العباسيين، أما بالنسبة للخلفاء الأمويين بالأندلس، فليس هناك خليفة واحد من أم حرة"[11]، لقد كانت سلمة أم لخليفة العباسي المنصور أبي المهدي جارية بربرية، أما أمهات المأمون والمنتصر والمستعين والمهتدي فكن جواري رومانيات، وكانت أم المتوكل تركية[12].

تجاوزت الخيزران هؤلاء جميعاً، لأنها ستغدو أماً لخليفتين، حيث إنها لم تقنع بتعيين ابنها البكر ولياً للعهد، ورغبت في مضاعفة حظوظها، فألحت على المهدي أن يعين ابنها الثاني ومفضلها هارون الرشيد ولياً للعهد هو ا لأخر.

وفي سنة 166 هـ أي بعد ست سنوات من تعيين موسى الهادي، عين الخليفة المهدي هارون الرشيد ولياً للعهد بعد أخيه. كان المهدي مشغوفاً بأبناء الخيزران وخاصة بابنته منها -بانوكة- التي بلغ شغفه بها إلى حد أنه لم يكن يفارقها، وكان يلبسها زي الرجال لكي تصاحبه في أسفاره. إلا أن البانوكة توفيت في سن مبكرة، فحزن عليها المهدي حزناً شديداً، ووجد كبار الأعيان وموظفو القصر أنفسهم مجبرين على تقديم تعازيهم إليه حسب المراسيم الرسمية المعمول بها، إلى حد أن السلطات الدينية اعتبرت الأمر مبالغاً فيه بالنسبة لامرأة، ذلك أن وفاة امرأة يجب أن تمر في السرية التامة، ولو تعلق الأمر بأميرة، خاصة وأن البانوكة كانت بنت جارية[13].

في سنة 169 هـ توفي المهدي زوج الخيزران، وأتيح لها أن تتصدر وتفيد من هذه الأحداث، كان ابناها بعيدين عن بغداد، فاستحضرت الوزراء لكي تستشيرهم وتأمرهم بصرف أجور الجند في أقرب وقت، وكان الأمر يتعلق بصرف رواتب عن عامين، وهو مبلغ ليس بالهَيِّن، إذ كان من الضروري تهدئة الجيش الذي تسربت إليه القلاقل إثر إعلان خبر وفاة المهدي، الذي كان يقود مع ابنه هارون حملة عسكرية بطبرستان، حيث أصيب خلال الطريق بمرض أدي إلى موته، وقرر هارون بعد استشارة مرافقيه دفن أبيه في عين المكان، وقفل راجعاً إلى بغداد حيث التحق بالخيزران، وقاما معاً بالسر على مراسيم ولاية العهد في

غياب المعني الرئيسي بالأمر، وعملا على أن يعين الهادي خليفة، ومن ثم قدم الأعيان بيعتهم لهارون نيابة عنه، ولم يلتحق الهادي ببغداد إلا بعد عشرين يوماً، وقام الجند خلالها بأعمال شغب: "فلما بلغوا بغداد وعلموا خبر المهدي، أتوا باب الربيع وأحرقوه وأخرجوا من كان في الحبوس، وطالبوا بالأرزاق"[14]، وحين قدم الرشيد إلى بغداد أرسلت الخيزران إلى الربيع ويحيى بن خالد تستدعيهما لتشاورهما في ذلك، فأما الربيع فدخل عليها، وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادي، ذلك أن الهادي كان أقل تسامحاً من أبيه تجاه تدخل أمه في شؤون الدولة، وكان قد بعث إلى الربيع رسالة يهدده فيها بالقتل حين علم بأن الربيع تجاوز المجال الممنوع أي الحريم، وكانت الخيزران في عهد زوجها، تستقبل الناس، وكان العديد من الشخصيات المهمة تتزاحم على بابها، وبعد موت زوجها لم تبدِ رغبتها في تغيير عاداتها: "وكان سبب أمرها بذلك أنه لما ولي الخلافة كانت تستبد بالأمور دونه، وتسلك به مسلك المهدي حتى مضى أربعة أشهر، فانثال الناس إلى بابها، وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها"[15].

شعر الهادي الذي لم يكن واثقاً من نفسه، بأن طموحات أمه تشكل خطراً، إضافة إلى أنه يغار من أخيه غيرة عمياء لكونه نال حب النخبة وإعجاب العامة بانتصاراته العسكرية. وقد حاول عدة مرات أن ينتزع منه منصب ولاية العهد لكي يعطيه لابنه جعفر[16].

فضل هارون حل الهرب، حيث قلل من فرص الالتقاء بأخيه، بيد أن الخيزران لم تسلك نفس النهج، وظلت تتدخل في أمور تحظى باهتمامها وعلى رأسها: قيادة شؤون الإمبراطورية، في حين كان الهادي يرى خلاف ذلك، ويكرر على مسامعها باستمرار: "لا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك"[17].

ورغم ذلك ظلت مستمرة في نهجها، وذات يوم قدمت إليه لترغمه على قضاء حاجة، وكانت بذلك تتدخل لصالح أحدهم ويدعى عبد اللـه بن مالك. رفض المهدي

الانصياع لطلبها، محاولاً التنصل من إعطاء جواب، ولكن الخيزران ألحّت على الأمر غير مبالية: "لابد من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد اللـه بن مالك. فغضب موسى وقال: ويل على ابن الفاعلة، قد علمتُ أنه صاحبها، و اللـه لا قضيتها لـه". فأجابته بغضب: "إذاً و اللـه لا أسألك حاجة أبداً. قال: لا أبالي و اللـه، فغضب وقامت مغضبة، فقال مهدداً: مكانك و اللـه لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لكِ مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونكِ؟ إياكِ وإياكِ لا تفتحي بابك لمسلم ولا لذمي. فانصرفت وهي لا تعقل، فلم تنطق عنده بعدها"[18]. غادرت الخيزران ابنها وهي تتعثر، وبذلك أعلنت الحرب بينهما.

مات موسى الهادي في سن مبكرة لم يتجاوز الرابعة والعشرين بعد فترة حكم قصيرة دامت عاماً ونصفاً ويذكر الكثير من المؤرخين أن وفاته كانت من عمل الخيزران الممنوعة سياسياً، وقيل إن الخيزران قد أحست أن ابنها يخطط لقتل هارون الرشيد، فأرادت التخلص من موسى الهادي وقررت قتله، فطلبت من جواريها التسرب إلى غرفة الهادي خلال نومه، وخنقه تحت الوسائد، فوضعت الجواري الوسائد على رأسه على سبيل المزاح وجلسن عليها، وقيل بأن الهادي حاول قتل أمه أكثر من مرة، إذ بعث إليها بطعام لذيذ يود أن تذوقه، ويبدو أن الخيزران الأم الحنون والعاطفية، قد أذاقت الطعام لكلب سقط ميتاً في الحين، "فأرسل إليها (الهادي) بعد ذلك، كيف رأيت الأوزة؟ قالت: وجدتها طيبة، فقال: لم تأكلي ولو أكلت لكنت قد استرحت منك، متى أفلح خليفة له أم"؟[19].

كان الهادي ابن الخيزران البكر يريد منها أن تعود إلى مكانها ومجالها أي البيت. وكانت الشخصيات التي تطلب مقابلتها تخرق في رأيه حدود حريمه، وبالتالي فإن الحجة التي اعتمدها الهادي ضد أمه حين قرر أن يقف في وجهها بعد أربعة أشهر من وفاة أبيه، لا ترتكز البتة على أي دليل يثبت عدم كفاءتها، بل إن

التدخل في السلطة حسب رأيه ليس من مهام النساء، فقرر الهادي منع أمه من التـدخل في أمـور الحكـم، فنادى على الشخصيات التي كانت تتقاطر عليها وحملها عـلى الاعـتراف بأنهـا تتجـاوز كونهـا امـرأة، قيـل: "فلما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده، قال يوماً وقد جمعهم: أيما خير أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين، قال: فأيما خير، أمي أو أمهاتكم، قالوا بل أمك يا أمير المؤمنين، قال: فأيكم يحـب أن يتحـدث الرجال بخبر أمه، فيقولوا فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحـب ذلـك، قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتـة"[20]، فشـقّ ذلـك عليها فاعتزلته، وحلفتْ ألاّ تكلمه، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة.

ولأن الخيزران كانت تحب السلطة وتتألم لعودتها إلى الحريم، فقد قررت أن تلجأ إلى السلاح الوحيد الذي يشكل جوهر السياسة أي القتل، ومن ثم خططت لجريمتها في قتل ابنها، لم يضع ابن الخيزران كفاءة أمه أو ذكاءها موضع شك حين عارض حقهـا في متابعـة العمـل السـياسي الـذي بدأتـه منـذ حيـاة زوجهـا: "وكانت تريد أن تغلبه على أمره كما غلبت على أمر المهدي، فكان يمنعها ويقول: ما للنساء والكلام في أمـر الرجال؟"[21].

ولم يكن هناك شك في تفوقها ومواهبها الاستثنائية، وذلك ما يفسر تميزها عن باقي المحظيات اللاتي أحطن بالمهدي ونجاحها في تقليص دور ابنـة عمـه وزوجتـه الارسـتقراطية (ريطـة). ومـن هنـا نـدرك بـأن الكفاءة لم تكن المجال الذي يمكن الهادي أن ينافس فيه أمه، ولذلك أشهر ضدها سلاحاً آخر: واجبهـا في أن تعود إلى مجالها أي إلى الحريم.

قال: وحدثني بعض الهاشميين، أنَّ سبب موت الهادي كان أنه لما جدَّ في خلع هـارون والبيعـة لابنـه جعفر،، وخافت الخيزران على هارون منه، دسَّت إليه من جواريها لمَّا مرض مَنْ قتله بالغمّ والجلوس عـلى وجهه، ووجهت إلى يحيى بن خالد: إنّ الرجل قد تُوفي، فأجددْ في أمرك ولا تقصِّر. وهنـاك رأي آخـر يقـول:

توفي موسى الهادي بعيساباذ سنة سبعين ومائة، واختلف في سبب وفاته، فقال بعضهم: كانت وفاته من قُرحة كانت في جوفه، وقال آخرون كانت وفاته من قِبل جوارٍ لأمه الخيزران، كانت أمرتهن بقتله.

وذُكر أنَّ الهادي كان قد خرج إلى الحديثة، حديثة الموصل، فمرض بها، واشتد مرضُه، فلما علمت الخيزران بذلك بعثت إلى يحيى تعلمه أن الرجل لمآبه، وتأمره بالاستعداد لما ينبغي، وكانت المستولية على أمر الرشيد وتدبير الخلافة إلى أن هلك، فأحضِر الكتَّاب وجُمِعوا في منزل الفضل بن يحيى، فكتبوا لليلتهم كتباً من الرشيد إلى العمال بوفاة الهادي، وأنهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يلُون، فلما مات الهادي أنفذوها على البُرُد.

وذكر الفضل بن سعيد، أن أباه حدَّثه أن الخيزران كانت قد حلفت ألاَّ تكلم موسى الهادي، وانتقلت عنه، فلما حضرته الوفاة، وأتاها الرسول فأخبرها بذلك، فقالت: وما أصنع به؟ فقالت لها خالصة: قومي إلى ابنك أيتها الحرة، فليس هذا وقت تعتُّب ولا تغضُّب، فقالت: أعطوني ماءً أتوضَّأ للصلاة، ثم قالت: أما إنا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفةٌ، ويملك خليفة، ويولد خليفة، قال: فمات موسى، وملك هارون، وولد المأمون.

ذكر يحيى بن الحسن أن محمد بن سليمان بن علي حدثه، قال: حدثتني عمّتي زينب ابنة سليمان، قالت: لما مات موسى بعيساباذ، أخبرتنا الخيزران الخبر، ونحن أربع نسوة، أنا وأختي وأم الحسن وعائشة، بُنيات سليمان، ومعنا رَيْطة أم علي، فجاءت خالصة، فقالت لها: ما فعل الناس؟ قالت: يا سيدتي، مات موسى ودفنوه، قالت: إن كان مات موسى، فقد بقي هارون، هات لي سويقاً، فجاءت بسويق، فشربت وسقتنا، ثم قالت: هات لساداتي أربعمائة ألف دينار، ثم قالت: ما فعل ابني هارون؟ قالت: حلف ألا يُصَلي الظهر إلا ببغداد، قالت: هاتوا الرحل، فما جلوسي ها هنا، وقد مضى! فلحقته ببغداد.

ملك موسى الهادي أربعة عشر شهراً وتوفي وهو ابن ست وعشرين سنة، وكانت ولايتـه سـنة وشـهراً واثنين وعشرين يوماً، وصلى عليه أخوه هارون بن محمد الرشيد، وكانت كنيته أبا محمـد، وأمـه الخيـزران أم ولد، ودفن بعيساباذ الكبرى في بستانه.

: قال مصعب بن الزبير: قال أبو المعافى: أنشدت العباس بن محمد مديحاً في موسى وهارون[22]:

يا خَيْزُرانُ هناكِ ثم هناكِ   إنَّ العبادَ يسوسُهم إبناكِ

قال فقال لي: إني أنصحك، قال اليماني: لا تذكر أمي بخير ولا بشر.

بويع للرشيد هارون بن محمد بالخلافة ليلة الجمعة الليلـة التـي تـوفي فيهـا أخـوه مـوسى الهـادي، وكانت سنه يوم ولي اثنتين وعشرين سنة، وقيل إحدى وعشرين سنة، وأمه أم ولد يمانية جرشية يقـال لهـا الخيزران. وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن أمرها.

وفيها (سنة 173) توفيت الخيزران أم هارون الرشيد وموسى الهادي، ذكر يحيى بن الحسن أن أباه حدثه قال: رأيت الرشيد يوم ماتت الخيزران، وذلك سنة ثلاث وسبعين ومائة، وعليـه جُبّـة سـعيدية وطيلسـان خَـرقٌ أزرق، قد شدُ به وسطه، وهو آخذ بقائمة السرير حافياً يعدو في الطين، حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه، ثـم دعا بخف وصلى عليها، ودخل قبرها، فلما خرج من المقبرة وُضع له كرسي فجلس عليه، ودعا الفضل بن الربيع، فقال له: وحق المهدي -وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد- إني لأهمُّ لك مـن الليـل بالشيء مـن التوليـة وغيرهـا، فتمنعني أمي فأطيع أمرها، فخذ الخاتم من جعفر. فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بـن صُـبيح: أنـا أجـلُّ أبـا الفضل عن ذلك، بأن أكتب إليه وآخذه، ولكن إن رأى أن يبعث به[23].

ويوم ماتت الخيزران سنة 173هـ خرج الرشيد يشيعها كما وصفه الطبري قـال: "رأيـت الرشـيد يـوم ماتت الخيزران وذلك سنة 173 هـ وعليه جبة سعدية وطيلسان خرق أزرق قد شد به وسطه، وهـو آخـذ بقائمة السرير حافياً يعدو في

الطين، حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه ثم دعا بخف وصلى عليها ودخل على قبرها"[24]. وقيل: إن وفاة محمد بن سليمان والخيزران كانت في يوم واحد.

كانت الخيزران تمثل أسطورة حيث يتشابك الإغراء والثروة والقوة بالإحساس ارتباطاً حميمياً، لقد اتخذت الخيزران قرارات سياسية هامة، إلى حد أنه يمكن لنا القول دون مبالغة، بأنها طبعت إحدى أهم الفترات في تاريخ الدولة العباسية والتاريخ الإسلامي.

الهوامش

(1) ابن حزم: رسالة في أمهات الخلفاء، مجلد 11 ص 120 ابن حـزم: رسـالة في أمهـات الخلفـاء، مجلد 11 ص 120.

(2) تفسير الطبري 541/7.

(3) الأغاني 28/15.

(4) السابق.

(5) ابن عبد ربه، العقد الفريد 142/7، كتاب المرجان من إخبار النساء.

(6) العقد الفريد 139/7.

(7) ابن حزم، نقط العروس في تاريخ الخلفاء، ضمن كتاب الرسائل، المجلد 11 ص 104.

(8) ابن حزم، رسالة في أمهات الخلفاء، المجلد 11 ص 121. الأغاني 28/15.

(9) ابن عبد ربه، العقد الفريد 142/7 كتاب المرجان من إخبار النساء.

(10) العقد الفريد 139/7.

(11) ابن حزم، نقط العروس في تاريخ الخلفاء، ضمن كتاب الرسائل، المجلد 11 ص 104.

(12) ابن حزم، رسالة في أمهات الخلفاء، المجلد 11 ص 121.

(13) الطبري، التاريخ 21/10.

(14) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت د ت، 84/5 وما تلاها.

(15) ابن الأثير 74/5، 79 .

(16) الكامل لابن الأثير 5/ 88.

(17) الطبري تاريخ الأمم والملوك 10/ 33.

(18) ابن الأثير 5/ 79.

(19) الطبري 10/ 33، 94.

(20) الطبريّ 34/10.

(21) الطبري 10/ 34.

(22) 8/ 223.

(23) الطبري 8/ 238.

(24) الطبري السابق والصفحة.

مصادر ومراجع:

الروضة الفيحاء: 255-256، تاريخ بغداد 4/ 430، تاريخ الطبري الجزء الثامن، تاريخ الخلفاء للسيوطي 185-188، أعلام النساء 338/1-339، فتوح البلدان 2/ 336، الأعلام 2/ 375-376، ابن حزم: نقط العروس.

الروضة الفيحاء في تواريخ النساء -لياسين بن خير اللـه العمري- تحقيق رجاء السامرائي، ط الدار العربية للموسوعات. علي إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ط مكتبة النهضة المصرية 1970. انظر في انحرافات الوليد: المسعودي 223/3، الطبري: 288،5/4/ 5 وما بعدها. سكينة الشهابي: تراجم النساء من كتاب تاريخ دمشق ص 411 ط 1982 وما تلاها. أبو الحسن المالقي: الحدائق الغناء في أخبار النساء "ليبيا وتونس1978. فيه ترجمة نوار الجارية، عمر كحالة: أعلام النساء. بغداد1973. ملكتان في بغداد، ترجمة عمر أبي النصر 1969. النساء الحاكمات في التاريخ: ترجمة إبراهيم داقوقي، ط مكتبة السعدون، وهناك كثير من المصادر التي تتعلق بالخيزران منها: الطبري تاريخ، المسعودي مروج الذهب، ط دار المعرفة بيروت 1983، في تراجم المهدي والهادي والرشيد 319/3، ابن الأثير، الكامل 81/5، الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شجرة الذهب في أخبار من ذهب 245/1، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، وغيرها.

بدونة زوجة توقيل ملك الروم

توفيت سنة 240 هـ

كانت أكفر من زوجها وأظلم منه، ولما مات زوجها سنة سبع وعشرين ومائتين، خلف ولداً صغيراً اسمه ميخائيل من زوجته الملعونة بدونة، فملكت الروم بدونة وأظهرت ما عندها من المكر والغدر، واستمرت إلى سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وجهزت في البحر ثلاثمائة مركب بالعساكر والعدد، وسيرتهم إلى قتال المسلمين، فقدموا إلى دمياط، وكبسوا المدينة، وأسروا ستمائة امرأة سوى الأطفال، وقتلوا كثيراً من الرجال، وعادوا إلى بلادهم، فكانت تفتخر، وتقول: أنا امرأة دبَّرت وعملت على أسر ستمائة امرأة.

وكثر شرها على المسلمين، ثم تسلّم روحها مالك، وسجنها في سِجِّين، وأراح منها الموحدين سنة مائتين وأربعين. وعهدت بالملك لولدها ميخائيل. وفي الأمثال: لا تلد الذيبة إلا ذيبة.

المرجع:

- الروضة الفيحاء: 348. سماها انستاس ماري الكرملي: ثيودورة زوجة ثوفيل 227 هـ/ 841، 842م.
- الروم سياستهم وصلاتهم بالعرب، لأسد رستم 1/ 327، وفيه ثيودورة، تاريخ الإسلام السياسي 3/ 231.

فضل الشاعرة اليمامية

توفيت سنة 257 هـ

جارية المتوكل، كانت شاعرة ماجنة، من أظرف أهل زمانها، ولها أخبار مِلاح مُدوَّنة، قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت فَضْل مولَّدة من مولَّدات البصرة، وبها نشأت، وكان مولدها اليمامة.

قال محمد بن داود الجراح: إنها كانت عبديَّة، وكذلك كانت تزعم هي، وتقول: إنَّ أمَّها علِقت بها من مولى لها من عبد القيس، وإنه مات وهي حامل بها، فباعها ابنُه، فولدتْ على سبيل الرِّق، وذُكِر عنها من جهة أُخرى أنَّ أُمَّها ولدتها في حياة أبيها، فرَبَّاها وأدَّبها، فلما توفيَ، تواطأ بنوه على بيعها، فاشتراها محمد بن الفرج الرُّخَجي، أخو عمر بن الفَرَج فأهداها إلى المتوكل. وكانت سمراء أديبة فصيحة، سريعة الهاجس، مطبوعة في قول الشعر، متقدمة لسائر نساء زمانها فيه.

وقال أحمد بن أبي طاهر: جُلِبتْ فضلُ الشاعرة من البصرة فاشتراها رجل من النخاسين بعشرة آلاف درهم، فابتاعها محمد بن الفرج الرُّخَجي فأهداها إلى المتوكل، فكانت تجلس في مجلسه على كرسي تُعارِضُ الشعراء بحضرته، فألقى عليها أبو دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلي:

قالوا عشقْتَ صغيرةً فأجبتُهم ... أشهى المطيِ إليَّ ما لم يُرْكَبِ
كم بين حبَّةِ لؤلؤٍ مثقوبةٍ ... لُبِسَتْ وحَبَّةِ لؤلؤٍ لم تُثْقَبِ

فقالت فضل مجيبةً له:

إنَّ المطِيَّةَ لا يَلَذُّ ركوبُها ... حتَّى تُذَلَّلَ بالزِّمامِ وتُركَبُ
والحَبُّ ليس بنافعٍ أربابَهُ ... حتى يُؤَلَّفَ بالنظامِ ويُثْقَبُ

وعن أبي العيناء، قال: لما أُدخِلَتْ فضل الشاعرة على المتوكل يومَ أُهديتْ إليه

قال لها: أشاعِرةٌ أنتِ؟ قالت: كذا يزعُمُ من باعني ومن اشترى، فضحِكَ وقال: أنشِدينا شيئاً من شعرك. فأنشدَتْهُ قولَها:

استَقْبلَ المُلْكَ إمامُ الهُدى   عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
خلافة أفضتْ إلى جعفرٍ   وهو ابنُ سَبْعٍ بعدَ عشرينا
إنَّا لنَرجو يا إمامَ الهُدى   أنْ تَملِكَ المُلْكَ ثمانينا
لا قدّسَ اللـه امرأً لم يقُلْ   عندَ دُعاءٍ لك: آمينا

قال: فاستحسنَ الأبيات وأمر لها بخمسين ألفِ درهم.

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن ابن المرزباني عن أبي العباس المروزي، قال: قال المتوكل لعلي بن الجهم: قل بيتاً وقُل لفضل الشاعرة تُجِزْهُ، فقال: علي: أجيزي يا فضل:

لاذَ بها يشتكي إليها   فلم يجِدْ عندَها ملاذا

فأطرقتْ هُنَيْأةً ثم قالت:

ولم يزلْ ضارعاً إليها   تَهْطِلُ أجفانُهُ رذاذا
فعاتِبَتْهُ فزادَ عِشْقاً   فماتَ وَجْداً فكان ماذا؟

فطرِبَ المتوكل وقال: أحسَنْتِ وحياتي يا فضل، وأمر لها بألفي درهم.

وقال سعيد بن حُمَيد، قلت لفضل الشاعرة أجيزي:

مَنْ لِمُحِبٍّ أحَبَّ في صِغَرِهْ؟

فقالت غير متوقفة:

فصارَ أُحدوثَةً على كِبَرِهْ

فقلت:

مِن نَظَرٍ شَفَّهُ فأرَّقَهُ

فقالت:

فكان مُبدَا هَواهُ من نَظَرِهْ

ثم شُغِلتْ هُنَيْأَةً ثم قالت:

لولا الأماني لماتَ من كَمَدٍ مَرُّ الليالي يزيدُ في فِـكَرِهْ

ليس له مُسْعِدٌ يُساعِـدُهُ بالليلِ في طولِهِ وفي قِصَرِهْ

قال: وبهِ أخبرنا أبو الفرج قال: قرأتُ في بعض الكتب عن عبد اللـه بن المعتز قال: قـال لي إبـراهيم بن المدبِّر: "كانت فضْلُ الشاعرة من أحسن خَلقِ اللــه -عـزَّ وجـلَّ- خَطَّـاً، وأفصـحهم كلامـاً، وأبلغَهـم في مخاطبة، وأبيَنَهم في محاورة، فقلت يومـاً لسـعيد بـن حُمَيـد: أظنـك يـا أبـا عـثمان تكتـب لفَضْـل رِقاعَهـا وتُفيدُها وتُخَرِّجُها فقد أخذتْ نحوك في الكلام وسلكتْ سبيلَكَ. فقـال لي وهـو يضـحك: مـا أحسـن ظَنَّـكَ! ليتها تسلمُ منّي: لا آخذ كلامَهَا ورسائلَها، و اللـه يا أخي لو أخذ أفاضلُ الكُتّاب وكبراؤهم وأماثلُهم عنهـا لما استَغْنوا عن ذلك.

وحدَّث أبو علي الرازي قال أنشدتنا فضل الشاعرة لنفسها:

الصَّبْرُ ينقُصُ والبلاءُ يزيدُ والدارُ دانيةٌ وأنتَ بعـيدُ

أشكوكَ أم أشكو إليكَ فإنَّهُ لا يستطيعُ سِواهُما المجهودُ

وحدَّثَ أبو علي نَطَّاحة قال: خرج بعض الهاشميين يوماً من منزل بعض إخوانه في الليل، فرأى امـرأة ذاتَ لِباسٍ وجَمال، وحولَها نسوة قد حَفَفْنَ بها، وهي في وسطهنَّ.

فقال:

إنَّ أخا الظلماءِ مُسْتَرابُ

وأسمع النسوةَ فأجابتهُ التي حَفَفْنَ بها في أسرعَ من نَفَسٍ:

إلا مُحِبّاً شاقَهُ الأحبابُ

فسألَ عن المرأة فإذا هي فضل الشاعرة. ذكر محمد بـن داود بـن الجـراح في كتابـه الورقـة (لم يـرد الخبر في كتاب الورقة المطبوع) في أخبار الشعراء المحدثين قال: فضل الشاعرة العَبْدية مولاة المتوكـل أشـعر امرأة كانت في هذا العصر، ومن قولها في السَّحَر:

قد بدا شِبْهُكَ يا مو لايَ يحدو بالظلامِ

فانتبه نقْضِ لّبانا   تِ اغتباق والتثامِ

قبلَ أن تفضَحَنا عَو   دةُ أرواحِ النيامِ

ذكر بعض المؤرخين أنَّ فضْلَ الشاعرة تُوفيت سنة سبع وخمسين ومائتين.

المراجع:

أخبارها وأشعارها في الأغاني 17/ 4-8، 21/ 114-120 ط ساسي، أمالي القالي، الذيل ص 86، طبقات الشعراء لابن المعتز ص 426،المنتظم لابن الجوزي 5/ 706، فوات الوفيات 2/ 348، المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ: 152، تاريخ الخلفاء للسيوطي: 360 ط الهند، بدائع البدائه: 29، 60، بندات البلاط العباسي: 82، عن نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء لابن الساعي، تحقيق مصطفى جواد، ط دار المعارف، مصر 1993. ص 84-90.

قبيحة

توفيت بعد سنة 296 هـ

كانت مولاة العباس بن الحسن وزير المقتدر بالله، من نساء العصر العباسي الثاني اللواتي كان لهن سطوة على أولادهن من الخلفاء، وقد كُنَّ يشرفن على شؤون الدولة، ويشتركن في تدبير أمور الحكم، وكان لهن أكبر الأثر في سير الحوادث في بغداد.

تزوجها المتوكل الخليفة العباسي، وكان كغيره من خلفاء عصره مدمناً على شرب الخمر، وكان شغوفاً بقبيحة أم ولده المعتز، وقد سميت قبيحة لحسنها وجمالها، كما كان يسمى الأسود كافوراً. ومما يدل على علو مكانة قبيحة وتمكنها من نفس المتوكل ما روي بأن المتوكل كلمها يوماً كلاماً أجابته بعبارات أغضبته، فرماها بمخدة فأصابت عينها فأثرت فيها، فتأوهت وبكت، وبكى المعتز لبكائها، فخرج المتوكل وقد حُمَّ من الغضب، فدعا عليَّ بن الجَهْم فقال له: قل يا عليُّ في علتي هذه شيئاً، وصِفْ أن الطبيب ليس يدري ما بي. فقال[1]:

تنكر حال علّتيَ الطبيبُ ... وقال أرى بجسمك ما يَريبُ

جَسَسْتُ العِرقَ منكَ فدَلَّ جسي ... على ألمٍ له خبر عجيبُ

فما هذا الذي بكَ هاتِ قُلْ لي ... فكان جوابَهُ منّي النحيبُ

وقلتُ أيا طبيبُ الهجرُ داني ... وقلبي يا طبيبُ هو الكئيبُ

فحرّك رأسَهُ عَجَباً لقولي ... وقال الحُبُّ ليس لهُ طبيبُ

فأعجَبني الذي قد قال جدّاً ... وقُلْتُ بلى إذا رضيَ الحبيبُ

فقالَ هو الشُفاءُ فلا تُقَصِّرْ ... فقلتُ أجلْ ولكنْ لا يُجيبُ

ألا هلْ مُسْعِدٌ يبكي لشجوي ... فإني هائمٌ فَرْدٌ غريبُ

فقال: أحسَنْتَ وحياتي، يا غلام اسقني قدحاً، فجاءه بقدح فشرب وسُقيت الجماعة مثله. وقرأت فضل الشاعرة أبياتاً أمرتها قبيحة أن تنشدها للمتوكل، فأعجب به وقال المتوكل: أحسنت يا فضل وأمر لها بعشرين ألف درهم، ودخل إلى قبيحة فترضَّاها، ولما تمت البيعة للمعتز وخلع المستعين أنفذ إليه أهله وولده، فأقام بواسط مدة، واجتمع غلمان المتوكل وقالوا: نخاف من كيد يلحق المعتز من المستعين، فصار إلى قبيحة أمه، فعرَّفوها ذلك وخوَّفوها منه، وقوي الخوف في نفسها فاضطربت له، فعزمت على قتله، فحضر الأولياء وتشاوروا في ذلك، فأشاروا به، فكتبت قبيحة إلى أحمد بن طولون: إذا قرأت كتابي فجئني برأس المستعين، وقد قلدتك واسط.

فلما وصل الكتاب إليه اغتم غماً عظيماً وكتب إليها يقول: و اللــه لا يراني اللــه عز وجل أقتل خليفة له في رقبتي بيعة وإيمان مغلظة أبداً.

فلما ورد كتابه بذلك زاد به في قلوب الأتراك محلاً كبيراً، ووسموه بحسن التوقف، وجميل المذهب، ووجهوا إلى أحمد بن طولون لما امتنع من قتله بسعيد الحاجب، وكتبوا إليه ليسلم المستعين إليه وينصرف عن واسط إلى سُرَّ مَنْ رأى،

ففعل ذلك، وأحمد الناس كلهم فعل أحمد بن طولون، وشكره عليه الخاص والعام. وقتل سعيد الحاجب المستعين.

ولما تولى المعتز الخلافة أهداه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة، وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف، وقد أدبها وثقفها وعلمها مختلف صنوف العلم، وحلت من قلب المتوكل في أسمى مكان، ولم يكن أحد يعدلها عنده، حتى فضل ابنها المعتز على سائر أولاده في وراثة عرش الخلافة رغم أحقيتهم عنه في شغله[2].

وفي سنة 235 هـ ولى المتوكل العهد أولاده: محمداً، وسماه المنتصر، وأبا عبد اللــه ابن قبيحة وسماه المعتز، وإبراهيم وسماه المؤيد. ورأى المتوكل أن يقدم

ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر لمحبته لقبيحة أم المعتز، إلا أن المنتصر غضب لذلك، ودبَّر مع الأتراك مؤامرة لاغتيال المتوكل فقتل وخلفه المنتصر، ولم تكن صلة المنتصر بالأتراك جيدة، فقد انقلب عليهم وصار يذمهم باعتبارهم قتلة الخلفاء، فقرر الأتراك قتله، وأغروا طبيبه ابن طيفور ورشوه بثلاثين ألف دينار فسمه، ومات المنتصر مسموماً وهو في السادسة والعشرين من عمره سنة 248 هـ

وبعد المنتصر بويع المستعين بالله، لأن العباسيين لم يأمنوا جانب الأتراك، فولوا الخلافة لمن يطمئنون إليه من أمراء البيت العباسي، فلم يولوا أحداً من أولاد المتوكل[3].

وأتيح لقبيحة أن تظهر مرة أخرى على مسرح السياسة في بغداد، وذلك لما رأى الأتراك تنكر المستعين لهم، خلعوه واعتلى عرش الخلافة ابن عمه المعتز ابن المتوكل ولد قبيحة، وله من العمر تسع عشرة سنة.

وأُخرج الخليفة المعزول إلى بلدة واسط، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه، فأحسن إليه وأطلق له الحرية في التنقل والصيد، وعلى الرغم من ذلك الفوز الذي أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه، فإنهم أوجسوا شراً من بقائه حياً، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين، ووافقتهم على ذلك قبيحة أم المعتز التي خافت على حياة ولدها أن تمتد إليها يد الأعداء، فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه بولاية واسط، فلم يرضَ أن يقتل خليفة له في رقبته بيعة، فأرسلوا سعيداً الخادم أحد حجاب القصر في شرذمة من الجيش إلى بلدة واسط، فتولى قتل المستعين بنفسه[4].

وسار الأتراك سنة 255 هـ إلى المعتز يطلبون أرزاقهم فقالوا: أعطنا خمسين ألف دينار حتى نقتل صالح بن وصيف، فلم يكن عنده ما يعطيهم، فأرسل المعتز إلى أمه قبيحة يسألها أن تعطيه ما يعطيهم. فأرسلت إليه: ما عندي شيء.

فلما رأى الأتراك أنهم لا يحصل لهم من المعتـز ولا مـن أمـه، ولـيس في بيـت المـال شيء، اتفقـت كلمـتهم وكلمة المغاربة والفراغنة على خلع المعتز فخلعوه.

ثم ما لبث الأتراك أن قبضوا على المعتز وقتلوه. ويصف ابن الأثير قتل المعتز في هـذه العبـارة: "فـدخل إليه جماعة منهم فجروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصـه وأقـاموه في الشـمس في الدار، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهـو يتقـي بيـده، وأدخلـوه حجـرة، وأحضروا ابن الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعـه، وشـهدوا عـلى صـالح بـن وصـيف أن للمعتـز وأمـه وولـده وأخته الأمان، وكانت أمه قبيحة قد اتخذت في دارها سرداباً فخرجت منه هي وأخت المعتز. وكانوا قد أخـذوا عليها الطريق ومنعوا أيَّ أحد أن يجوز إليها، وسلموا المعتز إلى مَنْ يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثـة أيـام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سرداباً وحصحصوا عليه فمات"[5].

وأما أم المعتز، فلما أيقنت بالهلاك عملت في الخلاص، فأخرجت ما في الخزائن من الأموال والجـواهر وغيرها فأودعته، واحتالت فحفرت سرباً في حجرة لها إلى موضع يفوت التفتيش، فلما وقعت الوقعـة عـلى المعتز بادرت فخرجت من ذلك السرب. وبعـد أن فرغـوا مـن المعتـز طلبوهـا فلـم يجـدوها ورأوا السرـب فخرجوا منه فلم يقفوا على خبرها، وبحثوا عنها فلم يظفروا بها.

ثم رأت قبيحة أن ابنها قُتل وأن الذي تختفي عنده يطمع في مالها وفي نفسها، ويتقرب بها إلى صالح بن وصيف، فأرسلت امرأة عطـارة إلى ابـن وصـيف فتوسـطت بيـنهما، وظهـرت وكـان لهـا أمـوال ببغـداد فأحضرتها، وهي مقدار خمسمائة ألف دينار, وظفروا لهـا بخـزائن تحـت الأرض فيهـا أمـوال كثـيرة، ومـن جملتها دار تحت الأرض وجدوا فيها ألف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينـار، ووجـدوا في سـفط قـدر مكـوك زمرد لم يرَ الناس مثله، وفي سفط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار، وفي سفط مقدار كيلجة من اليـاقوت الأحمر الذي لم يوجد مثله، فحمل كل ذلك إلى

صالح. وقد قدَّر ابن تغري بردي قيمة الجواهر بـألف ألـف دينـار، فسـبها وقـال: عرَّضـت ابنهـا للقتـل في خمسين ألف دينار، وعندها هذه الأموال كلها.

استخفت قبيحة بعد ابنها المعتز، خوفاً على حياتها من شر صالح بن وصيف، وأخفت ما عندها مـن المال وقدره 1800000 مليون وثمان مئة ألف دينار، عدا كثير من الجواهر والحلي والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذي لا تقدر له قيمة، ومن الغريب إنها عرَّضت ابنها للقتل، ورفضت أن تدفع للثائرين من الأتراك الـذين تأخرت رواتبهم خمسين ألف دينار.

وقد رثى الشعراء المعتز بقصائد، تبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك في الدولة العباسية وانتهـاكهم حرمـة الخلافة، ومن ذلك:

قتلوه ظلماً وجوراً فألفوه	كريم الأخلاق غير جـزوعِ
لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا	السيوف على القتيل الخـليعِ
أصبح الترك مالكي الأمر	والعالم مـا بينَ سامع ومطيعِ
وترى اللـه فيهم مالك الأمو	ر سيجزيهم بقتـلٍ ذريـعِ

ثم سارت قبيحة إلى مكة، فسُمِعتْ وهي تدعو بصوت عال على صالح بـن وصـيف وتقـول: اللــهم اخزِ صالحاً كما هتك ستري، وقتل ولدي، وشتت شملي، وأخذ مالي، وغرَّبني عن بلدي، وركب الفاحشة فيَّ.

وفي عهد الخليفة المهدي، ظهرت قبيحة أم المعتز بعد أن استخفت مدة[6] وكانت وفاتها بعد سنة 296 هـ

الهوامش

(1) الشعر لعلي بن الجهم في ديوانه: 106-107.

(2) (المسعودي: مروج الذهب 2/ 295-296.

(3) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي 2/ 32-33.

(4) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى ص 51.

(5) حصحصوا عليه: جعلوه في بيت وسدوا بابه، ابن الأثير 7/ 68-69.

(6) المسعودي: مروج الذهب 2/ 429-430.

المراجع:

ديوان علي بن الجهم، مروج الذهب للمسعودي، تاريخ الإسلام السياسي، نساء لهن في التاريخ نصيب: علي إبراهيم حسن: 84-86.

شغب أم المقتدر العباسي

توفيت سنة 321 هـ

شغب أم جعفر "المقتدر بالله" العباسي: مدبرة حازمة، كانت من جواري المعتضد بالله أبي جعفر، وأعتقها وتزوجها، ولما آلت الخلافة إلى ابنها المقتدر سنة 295 هـ وعمره ثلاث عشرة سنة، قامت بتوجيهه، واستولت على أمور الخلافة، وأمرت سنة 306 هـ قهرمانة لها اسمها "ثمل" أن تجلس للنظر في عرائض الناس، يوماً في كل جمعة، فكانت تجلس ويحضر الفقهاء والقضاة والأعيان وتبرز التواقيع، وعليها خطها، ولما ثار عبد الله بن حمدان على المقتدر، وناصره بعض رجال المقتدر، وخلعوه سنة 317 هـ استتر عند أمه، وقيل: حمل هو وأمه إلى دار مؤنس المظفر، وكان لها ستمائة ألف دينار في الرصافة، فأخذت. ثم لم تلبث أن عادت إلى تدبير الشؤون بعد قمع الثورة، في السنة نفسها، وظلت إلى أن قتل ابنها سنة 320 هـ وولي "القاهر" فضربها وعذبها، ثم نقلها الحاجب علي بن بليق إلى داره وجعلها عند والدته، وأكرمها ورفهها، إلا أنَّ علّتها من ضرب القاهر اشتدت عليها، فتوفيت، ودفنت بتربتها بالرصافة، قال ابن تغري بردي: كان لها الأمر والنهي في دولة ابنها، وكانت صالحة، وكان متحصلها في السنة ألف ألف دينار، فتتصدق بها وتُخرج من عندها مثلها. من آثارها بيمارستان أنشأته ببغداد، وكان طبيبه سنان بن ثابت، كان مبلغ النفقة فيه في العام سبعة آلاف دينار[1].

أدى تدخل النساء في أمور الدولة في العصر العباسي، إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء، واستهتار العامة بها، ووضحت تلك الظاهرة في عهد الخليفة المقتدر حين أصبح الأمر والنهي بيد أمه، وكانت تسمى "السيدة"، وهي سيدة رومية، وقد بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هي أو قهرمانتها[2] من أحد الوزراء أصبح مصيره العزل لا محالة.

وليس هذا هو كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين سنة 206 هـ قهرمانتها "ثومال" صاحبة للمظالم،

وبذلك تعدى الأمر من جلوس الوزراء للمظالم إلى جلوس بعض النساء، إذ كانت ثومال تجلس في الرصافة وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، وتحضر القضاة والأعيان، وتبرز التواقيع وعليها خطها، وكان من أثر هذا التعيين أن استهتر العامة بالخلافة، فنظروا إلى أحكامهم نظرة احتقار وازدراء، ولم تكن محكمة المظالم تنظر في قضايا الأفراد وحدها، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعب عامة.

وفي ذلك يقول صاحب الفخري: "واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه، ولاستيلاء نسائه عليه، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء، فخربت الدنيا في أيامه، وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة، فخُلع، ثم أُعيد ثم قُتل"[3] واستأثرت السيدة أم المقتدر بنفوذ كبير في الدولة العباسية، وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها في شؤون الدولة، وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة، من ذلك الكتاب الذي بعث به إليها الوزير المصلح علي بن عيسى، يتنصل فيه من التصرفات التي نسبتها إليه في إدارة شؤون الدولة المالية، وكان مصير هذا الوزير العزل، رغم ما قام به من إصلاح، وحرمت الدولة من الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة.

وفي ذلك يقول ابن الأثير: "لما كان آخر ذي القعدة سنة 304 هـ جاءته أم موسى القهرمانة، لتتفق معه على إصلاح ما يحتاج إليه حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم، فقال لها حاجبه: إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه، فاجلسي في الدار ساعة حتى يستيقظ، فغضبت من هذا وعادت. واستيقظ علي بن عيسى في الحال، وأرسل إلى حاجبه وولده يعتذر، فلم تقبل منه، ودخلت على المقتدر وتخرصت[4] على الوزير عنده وعند أمه، فعزله عن الوزارة وقبض عليه ثامن ذي الحجة"[5].

وكذلك عملت السيدة على عزل الوزير أبي العباس أحمد بن عبد اللـه بن أحمد الخصيب، وصودرت أمواله في سنة 314 هـ وفي عهد الوزير حامد بن العباس، ازداد نفوذ السيدة، على حين كان الخليفة قابعاً في داره[6].

وقد قص الصولي الذي تتلمذ عليه الراضي بن المقتدر وهو أمير، قصة تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرمانتها بتنشئة الأمراء، تنشئة قوامها التوفر على العلم، وتوجيههم وجهة صالحة في الإلمام بنظم الحكم والوقوف على أحوال الدولة وعلاقاتها بغيرها من الدول، بل على خلاف ذلك لم يأبهن أن يكون الأمير أو ولي العهد متعلماً مثقفاً، إنما يرونه ضعيفاً غير ملم بشؤون الحكم، وقد أدى ترك الخلفاء النساء يتدخلن في شؤون الدولة ويصرفن شؤونها والأخذ بآرائهم والرجوع إلى أقوالهن، إلى اتساع سلطانهن، حتى كن يأمرن بعزل الوزراء بمجرد صدور أية هفوة من أحدهم، وبدأت ظاهرة جديدة في العصر العباسي الثاني، هي كثرة تولية وعزل الموظفين، حتى إنه عين في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة، وأخذ من كل واحد منهم رشوة، وولي الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً، كان لكل منهم أتباع ومحاسيب وصنائع، وحرص كل من هؤلاء الوزراء على تقديم المال لنساء القصر ليضمن بقاءه في الوزارة.

ويقول الصولي: "وإني لأذكر يوماً في إمارته وهو يقرأ عليَّ شيئاً من شعر بشأنه، وبين يديه كتب لغة وكتب أخبار، إذ جاء خادم من خدم جدته السيدة، فأخذ جميع ما بين يديه من الكتب، فجعلوه في منديل كان معهم، وما كلمونا بشيء ومضوا، فرأيته قد وجم لذلك واغتاظ.. ومضت ساعات أو نحو ذلك، ثم ردوا الكتب بحالها... وقالت السيدة: ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء. وهذا أبوهم قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم، فاعمل على ذلك.."[7]، سنة 296 هـ:

وفي سنة 296 هـ خُلع الخليفة جعفر المقتدر من الخلافة وبويع عبد اللـه بن المعتز بالخلافة، وسبب خلعه صِغَر سنه وقصوره عن تدبير الخلافة واستيلاء أمه القهرمانة على الخلافة، وكانت أمه أم ولد تُسمى شَغَب، فاتفق الجند على قتله

وقتل وزيره العباس بن الحسن وقتل فاتك المعتضدي، وثبوا على هـؤلاء وقتلـوهم، وكـان المقتـدر بالحَلَبـة يلعب بالصولجة[8] أعني بالكرة على عادة الملوك، فلما بلغه قتلهم نزل وأغلـق بـاب القصر فبـايعوا عبـد اللـه بن المعتز بشروط شرطها عبد اللـه عليهم، وكـان عبـد اللــه بـن المعتـز أشـعر بنـي العبـاس ومـن خيارهم، ولقبوه بالمنصف باللـه، وقيل: بالغالب باللـه، وقيل: بالراضي باللــه، وقيـل بالمرتضى واسـتوزر محمد بن داود بن الجراح.... وخُلع عبد اللـه بن المعتز من يومه وقُتـل مـن الغـد، وكانـت خلافتـه يومـاً وليلة، وقيل بل نصف نهار وهو الأصح، وقُتل جماعة من القضاة والفقهاء الذين اتفقوا على خلـع المقتـدر، قتلهم مؤنس الخادم، وأعيد جعفر المقتدر إلى الخلافة[9].

وفي سنة ست وثلثمائة فُتح بيمارستان السيدة أم المقتدر ببغداد، وكان طبيبُه سنان بن ثابـت، وكـان مبلغ النفقة فيه في العام سبعة آلاف دينار، وفيها أمرت أم المقتدر ثُمَلَ القَهرمانـة، أن تجلـس بالتربـة التـي بنتها بالرصافة، للمظالم وتنظر في رقاع النـاس في كـل يـوم جمعـة، فكانـت ثمـل المـذكورة تجلـس ويحضر الفقهاء والقضاة والأعيان، وتبرز التواقيع وعليها خطها، وفيها حج بالناس الفضل بن عبـد الملـك الهاشـمي، وقيل: أحمد بن العباس أخو أم موسى القهرمانة.

وفي سنة 310 هــ عشر وثلثمائـة قـبض الخليفـة المقتـدر عـلى أم مـوسى القهرمانـة وصـادر أخاهـا وحواشيها وأهلها، وسبب ذلك أنها زوجت بنت أخيها أبي بكر أحمد بن العباس، من أبي العباس محمد بـن إسحاق بن المتوكل على اللـه، وكان من سادة بني العباس يترشح للخلافـة، فـتمكن أعـداؤها مـن السـعي عليها، وكانت قد أسرفت بالمال في جهازها، وبلغ المقتدر أنها تعمل له عـلى الخلافـة، فكاشـفتها السـيدة أم المقتدر وقالت: قد دبَّرتِ على ولدي، وصاهرتِ ابـن المتوكـل حتـى تقعديـه في الخلافـة، فسـلمتها إلى ثمـل القهرمانة ومعهـا أخوهـا وأختهـا، وكانـت ثمـل مشـهورة بالشر وقسـاوة القلـب، فصـبت علـيهم العـذاب واستخرجت منهم الأموال

والجوهر، يقال: إنه حُصِّل من جهتهم ما مقداره ألفُ ألفِ دينار، وفيها قلد الخليفة المقتدر نازوك الشرطة بمدينة السلام مكان محمد بن عبد اللـه بن طاهر.

وفي سنة 317 سبع عشرة وثلثمائة، خُلع أمير المؤمنين المقتدر باللـه جعفر من الخلافة، خلعه مؤنس الخادم ونازوك الخادم وأبو الهيجاء عبد اللـه بن حمدان، وأحضروا من دار الخلافة محمد بن الخليفة المعتضد، وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالقاهر لله ... ووقع النهب في دار الخلافة، وكان لأم المقتدر ستمائة ألف دينار في الرصافة فأُخذت، واستتر المقتدر عند أمه[10]، وبعد ثلاثة أيام حضرت الرجَّالة من الجند وامتلأت دار الخلافة وازدحم الناس، ودخلوا إلى المقتدر وحملوه على رقابهم، وصاحوا: يا مقتدر يا منصور، وخرجوا به، وبايعوه ثانياً بالخلافة بعد أمور وقعت بين القواد والجند من وقائع وحروب،... ثم استقر بعد هذه في الخلافة إلى أن مات.

وقيل: استمر المقتدر على خلافته إلى أن حصل بينه وبين الحاجب مؤنس الخادم وحشة فهرب مؤنس إلى الموصل وملكها وجمع العساكر، وعاد إلى بغداد فخرج إلى حربه المقتدر، فقُتل وحُمل رأسه على رمح إلى عند مؤنس سنة تسع عشرة وثلاثمائة، ثم صلبوا جثة المقتدر وهو مكشوف العورة فلا رحم اللـه مؤنساً، ثم صادر أصحاب المقتدر وقبض على أمه القهرمانة، وتبعه بذلك الخليفة القاهر محمد أخو المقتدر لأبيه، وعذَّب القهرمانة، وسألها عن الأموال فاعترفت بما عندها من المصاغ والثياب، فضربها الضرب الشديد وعلقها من رجليها منكسة حتى كان يجري بولها على وجهها، وماتت سنة عشرين وثلاثمائة

وكانت خلافة المقتدر خمساً وعشرين سنة إلا بضعة عشر يوماً، وكانت النساء قد غلبن عليه، وكان سخياً مبذراً يصرف في السنة للحج أكثر من ثلثمائة ألف دينار، وكان في داره أحد عشر ألف غلام خِصيّ غير الصقالبة والروم، وأخرج جميع جواهر الخلافة ونفائسها على النساء وغيرهن، وأعطى الدرة اليتيمة لبعض

حضاياه، وكان زنتها ثلاثة مثاقيل، وأخذت زيدان القهرمانة سُبحة جوهر لم يُرَ مثلها قيمتها ثلاثمائة ألف دينار....

وفي سنة 320 هـ قتل المغاربة والبربر المقتدر، وكان المقتدر ثقيل البدن عظيم الجثة، فلما قتلوه رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبّرون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله، وتركوه مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حُفر له موضعه ودُفِن وعفي قبره[11].

ومات المكتفي بالله أخو المقتدر لأبيه، وعمره ثلاث عشرة سنة، فدبر مملكته أمه القهرمانة، وكان المقتدر مولعاً بحب النساء حتى انه أعطاهن جميع ما عنده من الجواهر النفيسة، واستمرت القهرمانة تدبر المملكة إلى أن كثر الضرر وعمّ الناس في البر والبحر، وغارت الروم على الثغور الجزرية، وملك المهدي العلوي مدينة الإسكندرية، فعند ذلك أيقظت همة ولدها المقتدر، وأمرته أن يجلس للمظالم ووهبت وأعطت، وأنعمت على أرباب الدولة وذلك سنة خمس وثلاثمائة، وقدم رسول الروم إلى بغداد فاصطفت العساكر وكانوا مائة ألف وستين ألفاً، ووقفت الغلمان والخصيان والخدام وهم سبعة آلاف[12].

ثم إن الله اقتص من مؤنس الخادم فقتله القاهر، وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، قبض المماليك على القاهر وخلعوه وسملوا عينيه، وبقي يسأل الناس الصدقة وذلك لشدة ظلمه، وقطع رحمه و الله أعلم.

وماتت في هذه السنة 317 هـ ثمل القهرمانة وخلفت أموالاً كثيرة.

وفي سنة 321 هـ توفيت السيدة شغب أم الخليفة المقتدر بالله جعفر، كان متحصلها في السنة ألف ألف دينار، فتتصدق بها وتخرج من عندها مثلها، وكانت صالحة، ولما قتل ابنها كانت مريضة، فقوي مرضها وامتنعت من الأكل حتى كادت تهلك، ثم عذبها القاهر حتى ماتت، ولم يظهر لها إلا ما قيمته مائة وثلاثون ألف دينار، وكان لها الأمر والنهي في دولة ابنها.

الهوامش

(1) الأعلام 3 / 168، القهرمانة: المسيطرة على من تحت يدها.

(2) ابن طباطبا: الفخري ص 240.

(3) تخرصت: كذبت.

(4) ابن الأثير، تاريخه 8/ 37.

(5) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم: النظم الإسلامية ص 160.

(7) الصولي ص 24-25.

(8) الصولجة: العود المعوج يضرب به الكرة على الدواب.

(9) النجوم الزاهرة 164/3.

(10) وفي ابن الأثير وتجارب الأمم: وحمل المقتدر وأمه وأولاده وخالته إلى دار مؤنس المظفر.

(11) الكامل: ابن الأثير حوادث سنة 320 هـ

(12) الروضة الفيحاء ص 273.

المراجع:

- الروضة الفيحاء 272. سيدات البلاط العباسي 88-93، النجوم الزاهـرة 3 /164، 193، 204، 223، 239، تاريخ الخلفاء 378.
- ابن طباطبا: الفخري. الصولي: الكامل لابن الأثير. علي إبراهيم وحسن إبراهيم: النظم لإسلامية.
- الزركلي: الأعلام.

صبيحة

توفيت سنة 398 هـ

صبيحة سيدة نابهة الذكر قوية الشخصية، واسعة النفوذ، انتشر سلطانها في بلاد الأندلس فترة طويلة من الزمن، وكان لها أعظم الأثر في تسيير دفة الأمور، والتأثير في مجرى الحوادث الجارية في البلاد، واقترن اسمها بالنهضة العلمية والاقتصادية، وذلك الأمن والنظام الذي رفرف على ربوع الأندلس، في عهد زوجها الخليفة الحكم المستنصر بالله، وعهد وصايتها على ابنها الخليفة هشام ابن الحكم.

اعتلى عرش الخلافة الحكم المستنصر بعد موت أبيه عبد الرحمن الناصر، وكان المستنصر في الثامنة والأربعين من عمره، وكان من أكابر الأمراء وله دراية بشؤون الإدارة وقيادة الجيوش، كان يحب الشعر والموسيقى، وسمع ذات يوم صوتاً جميلاً وهو يتنزه في حدائق الزهراء في قرطبة، وعرف أنه صوت فتاة جميلة، هي صبيحة التي أصبحت فيما بعد زوجةَ الخليفة، وأماً لولدين ثانيهما هشام ولي العهد الذي ورث عرش الأندلس بعد أبيه، وازدادت مكانة صبيحة في قلب الخليفة بمولد ولديها، وكان يدعوها على الدوام باسم "صبح".

وكان الحكم من الخلفاء الذين يشجعون العلم ويحترمون العلماء ويجزلون لهم العطاء، وعرف ذلك عن الخليفة في سائر الأقطار، حتى رحل إلى الأندلس كثير من أهل العلم والأدب، وحفل جامع قرطبة بالحكماء الذين عهد إليهم التدريس لطلاب العلم، ومن أبرز هؤلاء الطلاب، محمد بن أبي عامر الذي أصبح فيما بعد وزير الأندلس الملقب بالمنصور.

هيأ انصراف الخليفة إلى أمور العلم، الفرصة لزوجته صبيحة لمشاركته في إدارة شؤون الحكومة، وأظهرت في ذلك الميدان حكمة وكياسة، فأشركها معه الخليفة علناً ومنحها سلطات واسعة، وأصبحت معه صاحبة السلطان المطلق والكلمة النافذة، وكثرت أعمالها فرغب الخليفة في اختيار كاتب قدير يقوم بتحرير

أوامر الملكة وتبليغها إلى مختلف الجهات، ووقع الاختيار على محمد بن أبي عامر، ذلك الشاب الذي تلقى علومه في جامع قرطبة على يدي علماء عصره.

كانت السلطة اسمية في يد الخليفة الحكم، أما السلطان الفعلي فكان في يد صبيحة، التي أصبحت محط رحال الشعراء والأدباء، يلجأ إليها وجوه القوم وأعيان البلاد لقضاء حاجاتهم، ويقف الشعراء على بابها ينشدونها مدائحهم طلباً لرضائها وطمعاً في مالها، وصار بلاطها مقصد السفراء من مختلف الممالك، كما أرست مجالس الحكم، وأشرفت على تدبير الخطط اللازمة للدفاع عن البلاد، يعاونها الحاجب جعفر المصحفي والكاتب محمد بن أبي عامر[1].

أصبح الخليفة الحكم زوج صبيحة كمّاً مهملاً، وصار نسياً منسيّاً، ولم يقدّر عواقب إسناد وظيفة الكاتب إلى شاب وسيم، مثل ابن أبي عامر، لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، فإنه ما لبث أن أصبح مستشاراً لها، وعهدت إليه إدارة ضياعها وممتلكات ابنها هشام ولي عهد الأندلس، وقدر المدير الجديد لضياع الأميرة ما غمرته به من الخير العميم، فقدم إليها عدداً من الهدايا النفيسة، مما كلفه أموالاً طائلة، جعلت الناس يتساءلون عن مصدرها، وحين اتصل ذلك بمسامع الخليفة، دعاه إلى تقديم حساب عن أموال الحكومة التي في عهدته، وكان ابن أبي عامر قد تصرف في تلك الأموال، تصرفاً دعاه إلى الاستدانة حتى يكمل العجز الذي حلَّ بها نتيجة إسرافه في تلك الهدايا، وتوصل بذلك إلى موازنة تلك الأمور، فوثق به الخليفة وأرسله إلى مراكش لمراقبة دفاتر بيت المال وكشف أموال غالب القائد الأكبر المقيم هناك، ولكن ابن أبي عامر عاد بعد قليل إلى قرطبة بعد إنجاز مهمته[2].

ونجحت صبيحة، بعد أن تبيَّن لها أن الخليفة على وشك الموت، في عقد مجلس كبير يضم أشراف الأندلس وأعيانها. وفي ذلك الاجتماع قرأ الخليفة على الحاضرين صيغة إقرار بقبولهم تولي ابنه هشام الخلافة من بعده، وكان في الحادية عشرة من عمره، وأبعد بذلك المغيرة شقيق الحكم عن العرش، وكان شاباً في

السادسة والعشرين من عمره، ونجح ابـن أبي عـامر في نشرـ الـدعوة لهشـام بـين وجـوه الأنـدلس، وكافـأه الخليفة بتعيينه مفتشاً عاماً للقصر السلطاني.

مات الخليفة وهو في الرابعة والستين من عمره، تاركاً ابنه هشاماً تحت وصاية أمـه صـبيحة، وحـين اتصل بعلمها نبأ تآمر أتباع المغيرة على الخليفة الجديد وأهله وأعوان أبيه، دبرت مؤامرة قضـت بهـا عـلى حياة المغيرة، وخلا الجو لها بعد ذلك، لأن ابنها كان لا يزال طفلاً لا يسـتطيع إدارة شـؤون الـبلاد، وظهـرت أمه صبيحة على المسرح بمظهر الوصية والملكة الفعلية ومدبرة السياسة الأندلسية، وجذبت محبة الشـعب بتخفيضها الضرائب عن كاهله مما أعلى قدرها ورفع من شأنها.

ولكن الدهر قلب لها ظهر المِجَن، فإن معينها وساعدها الأيمن ابـن أبي عـامر، الـذي أحبتـه وقدرتـه ورفعته إلى أعلى المناصب وحمته من غضب الشعب وحساب الخليفـة، مـا لبـث أن تكـبر وتجـبر، بعـد أن انتصر على الفرنجة وأبعد خطرهم عن البلاد، وعاد ظافراً مزهواً، مما جعله يفكر في الانفراد دونها بـالحكم والسلطان، وإبعاد هشام عن أمور الدولة، بل وعن منصب الخلافـة ليصـل هـو إليـه، وكـان ذلـك سـبباً في تعكير العلاقات بينه وبين صبيحة. وكان زواج ابن أبي عامر من ابنة القائد غالـب، داعيـاً إلى حقـد الأمـيرة عليه، وإيذاناً بفتور العلاقات بينهما، وقيام نضال عنيـف بـين الطـرفين، أفقدتـه صـبيحة خلالـه كثـيراً مـن أنصاره، وكادت توغر صدر الشعب عليه، وتدبر له فتنة جامحة.

حدث كل ذلك والخليفة هشام بن الحكم في قصره الأندلسيـ لا يـدري مـن الأمـر شـيئاً، ولا يعـرف الشعب عن خليفته إلا اسمه دون رسمه، أو كنه وظائفه. ولم ينتهِ ذلك النضال إلا بوفاة ابن أبي عامر.

وتوفيت صبيحة بعده بست سنوات، أي في سنة 398 هـ بعد حياة كلها جهاد، دوخت خلالها كبـار شخصيات الأندلس، وعاركت الدهر وتقلباته، وانتصرت على أهواله، وتدهورت بعد وفاتها أحوال الأندلس، وكأن القدر لم يشأ أن يبقيها

على قيد الحياة، حتى تشهد مصرع الدولة الأندلسية، التي شربت من بعدها كأس الذل والهوان، بعـد أن ذاقت في أيامها من العز والسؤدد ألواناً.

الهوامش

(1) المقري: نفح الطيب 1 / 164-165.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي 3/ 286.

المراجع:

- المقري - نفح الطيب 1/ 164-165.
- أحمد أمين - ظهر الإسلام 3/ 126-127.
- علي إبراهيم حسن - نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب: 90-93.
- حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي 3/ 286، 302، 304.

ست الملك الفاطمية

أخت الحاكم بأمر الـلـه

توفيت سنة 415 هـ

ست الملك، سيدة لها خطورتها في كل مـن ميـدان السياسـة وميـدان الـدين، فهـي مجاهـدة باسـلة كافحت كفاحاً يضمها إلى صفوف الأبطال، وهـي أيضـاً امـرأة عجيبـة قامـت حولهـا الشـائعات والأقاويـل، عاصرت ثلاثة من الخلفاء الفاطميين، ولعبت في عهد كل منهم دوراً ظاهراً ملموسـاً مـن تـاريخ حياتهـا، في جو من المتناقضات، فعاشـت في قصرـ جمـع بـين الإيمـان والإلحـاد، وبـين الحكمـة والجنـون، وبـين القـوة والضعف، وبين الدموع والدماء، وفي بلاطها كانت تدبر المؤامرات، وتوضع الخطط التي تقرر حياة أمـير أو قائد أو خليفة.

تلك هي ست الملك، أبوها "العزيز" رجل مسلم عربي وقوي، بل هو خليفة المسلمين، ويرجـع أصـله إلى الرسول عليه السلام، وأمها نصرانية جميلة من الشام، أخواها بطريقان ملكانيان على المسيحيين، ورثـت ست الملك عن أبيها أصله وقوته، وعن أمها جمالها وذكاءها، وبرزت للتاريخ امرأة قوية الشخصـية خارقـة الذكاء، شديدة التحمس، كريمة حازمة، حليمة، مشهورة بالتسامح الـديني، وعطفهـا عـلى النصـارى، ولعـل سبب ذلك قرابتها لهم عن طريق الأم.

لمس أبوها فيها هذه الصفات، فكان يستشيرها في أمور الدولة، ويتقبل رأيهـا، في تقـدير. نـذكر مـن أمثلة ذلك أن أباها عزل عيسى بن نسطورس من منصـب الـوزارة، فتـدخلت سـت الملـك إلى جانـب ذلـك الوزير المسيحي المعزول، بما لها من شخصية وتأثير على أبيها. واستطاعت أن تثنيـه عـن رأيـه وترجـع ابـن نسطورس إلى كرسي الوزارة مـرة أخـرى، وعنـدما مـات العزيـز أوصى ابنتـه سـت الملـك أن تتكفـل أخاهـا (الخليفة الصغير) بالعناية والاهتمام.

تولى أخوها الخلافة باسم الحـاكم بـأمر الـلــه، وفي عهـده قفـزت سـت الملـك إلى مسرـح السياسـة والدين، لتمثل دور بطلة تاريخية مشهورة، بدأت ذلك العهد بتنفيذ

وصية أبيها الراحل فعطفت على أخيها كل العطف، وحمت عرشه من الدسائس والمؤامرات، وأنقذتـه مـن سيطرة وصيه ومربيه "برجوان" وساعدته حتى حكم البلاد بنفسه تحت إرشادها.

وفي قصر الحاكم عاشت ست الملك عيشة هانئة وادعـة، يحوطهـا الـترف والنعـيم مـن كـل جانـب، حولها مئات الجواري، وطائفة من رجالها المخلصين أمثـال ريـدان الصـقلي، والفضـل بـن عبـد اللــه، كـما لبست أفخر الثياب، وتحلت بأغلى الجواهر الكريمة، من ياقوت ومـاس وزبرجـد، وكانـت مخصصـاتها كـل سنة خمسين ألف دينار.

على أن الأمور لم تستمر على هذه الحال من الهدوء، بل تلبد الجو، واضطربت أمور الدولة، إذ اختل عقل الحاكم بأمر اللـه، فحرم على الناس أكل الملوخيا والقرع والجرجير، وأمـر بإطفـاء الأنـوار لـيلاً، ومنـع السيدات من السير في الطرقات، أو التطلع مـن النوافـذ، ومنـع صـانعي الأحذيـة مـن صـنع أحذيـة لهـن، ومنعهن من البكـاء عـلى المـوق والسـير وراء الجنـائز، أو دخـول الحمامـات العامـة، وتعسـف في معاملـة النصارى واليهود، وقتل الكثير من رجاله، وأكثرَ مـن عـزل وزرائـه[1]. وظـل عـلى تلـك الحـال مـن التقلـب والغموض، وقد حاولت ست الملك أن ترد أخاها إلى الصـواب فلـم تسـتطع، ونظـرت إلى الدولـة فوجـدت الشعب متذمراً والحكم منحلاً، ودولة آبائها مشرفة على الانهيار، فهدَّأت الحالة بقدر ما تستطيع.

وصف المؤرخون شخصية الحاكم وخلافته بأنها متضادة بين شجاعة وإقـدام، ومحبـة للعلـم وانتقـام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء، وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخـل بمـا لم يبخـل بـه أحـد قط، وأقام يلبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وأقام سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً، ثم عنَّ له أن يجلس في الظلمة، فجلس فيها مدة، وقتل من العلماء والكتَّاب والأماثل ما لا يحصى، وكتب عـلى المساجد والجوامع سبَّ الصحابة ثم محاه، وقطع الكروم ومنع

بيع العنب، وأراق خمسة آلاف جرة عسل في البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً، وكان عجيب السيرة يخترع في كل وقت إموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها.

ونزلت الطامة الكبرى، حين وقع الحاكم تحت تأثير جماعة من النفعيين، أقنعوه بأن روح اللـه قد حلت في جسده، فادَّعى الألوهية، وأمر الناس بعبادته، وذعرت ست الملك من هذا الإلحاد، وعجبت من انقياد أخيها لتلك الفكرة الجنونية، وهو خليفة المسلمين وسليل فاطمة الزهراء بنت الرسول، وعبثاً حاولت أن تقنعه بأنه بشر مثلها، وأن ألوهيته خرافة، على أن الحاكم ثار وأنكر أخوّتها، كما تنكر لأمه وابنه وزوجته، مدعياً بأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد!

بدأ الشعب يحتقر خليفته الملحد، وتنازعت ست الملك عاطفتان، هما العطف على الشعب، والعطف على أخيها، وسرعان ما ناصرت الشعب، وتضايق الحاكم من تمرد أخته ورفضها لعبادته. ولما لم يستطع الحاكم أن يقضي عليها، أخذ يحيك حولها الإشاعات ويتهمها بباطل التهم، وهددها بالقتل واتهمها بأنها تستقبل الرجال وتمكنهم من نفسها، فتأكدت من أنه يختلق لها حجة مكذوبة لكي يقتلها.

ولكن ست الملك جاهدت ضد أخيها بقدر استطاعتها، وأخيراً لم تجد إلا حلاً واحداً هو التخلص منه فداءً للدين، ولوطنها، وأسرتها، وتطهيراً لسمعتها. وتم لها ما أرادت، وقتل الحاكم في ظلمة الليل أثناء ذهابه إلى خلوته المحببة إليه في جبل المقطم.

وقد اختلفت الروايات في كيفية قتله، إذ يقال إنَّ أخته ست الملك كان لها يد في قتله، لأنه اتهمها في أخلاقها ورماها بأمور عدتها مشينة لشرفها، يقول أبو المحاسن: إن ست الملك اتفقت مع سيف الدولة ابن دواس أحد شيوخ كتامة على اغتياله، وقالت له: لي إليك أمر لابد لي فيه من الاجتماع بك، فإما تنكرت وجئتني ليلاً أو فعلت أنا ذلك، فقال: أنا عبدك والأمر لكِ. فتوجهت إليه ليلاً في داره متنكرة، ولم تصحب معها أحداً، فلما دخلت عليه قام وقبّل الأرض بين يديها دفعات، ووقف في الخدمة، فأمرته بالجلوس وأخلى المكان، فقالت: يا سيف الدولة،

قد جئت في أمر أحرس به نفسي ونفسك والمسلمين، ولك فيه الحظ الأوفر، وأريد مساعدتك فيه، فقال: أنا عبدك، فاستحلفته واستوثقت منه، وقالت له: أنت تعلم ما يقصده أخي فيك، وإنه متى تمكن منك لم يبق عليك، وكذا أنا ونحن على خطر عظيم، وقد أضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الألوهية وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه، وقد زاد جنونه وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه، فيقتلوه ويقتلونا معه، وتنتهي هذه الدولة أقبح انقضاء. فقال سيف الدولة: صدقت يا مولاتي، فما الرأي؟ قالت: تقتله ونستريح منه، فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره وشيخ الدولة والقائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس غرضي إلا السلامة منه، وإني أعيش بينكم آمنة من الفضيحة[2] ثم اتفقت مع عبدين على قتله عند خروجه إلى جبل المقطم. فظلا يرقبانه إلى أن قرب الصباح فوثبا عليه وطرحاه أرضاً، وقتلاه ثم حملاه إلى ابن دواس، فحمله مع العبدين إلى أخته ست الملك، فدفنته في مجلسها، وكان ذلك في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة 411 هـ ومكنت ابنه الصغير واسمه أبو الحسن علي بن الحاكم من اعتلاء العرش، وصار لقبه (الظاهر لإعزاز دين الله)، ورحب به الشعب فرحاً بالخلاص من أبيه الطاغية.

وهناك رواية أخرى تقول إن الحاكم خرج هذه الليلة راكباً حماراً، ويصحبه رجلان، وأنه اختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر، فقام بعض رجال الدولة وقضاتها وأخذوا في البحث عنه، فعثروا على الحمار الذي يركبه مقطوع اليدين، ثم تابعوا السير حتى وصلوا إلى بركة شرقي حلوان، فوجدوا فيها ثيابه وهي سبع جباب مزررة وفيها أثر السكاكين. ثم ظهر رجل من إحدى بلاد الصعيد وادعى أنه قتل الحاكم، واعترف بذلك، ولما سئل عن سبب قتله، قال: قتلته غيرة لله والدين[3].

وروى القضاعي: "أن ست الملك غدرت بابن دواس، قيل إنها بعثت بالعبيد إلى ابن دواس ليكونوا في خدمته، فجاؤوا ووقفوا بين يديه، فقالت ست الملك لنسيم صاحب الستر: اخرج قف بين يدي ابن دواس، وقل للعبيد: يا عبيد، مولاتنا تقول

لكم هذا قاتل مولانـا الحـاكم فـاقتلوه، فخـرج نسـم فقـال لهـم ذلـك، فمالـوا عـلى ابـن دوّاس بالسـيوف فقطعوه، وقتلوا العبدين اللذين قتلا الحاكم، وكل من اطلع على سرها قتلته، فقامت لهـا الهيبـة في قلـوب الناس". وقال ابن الصابىء: لما قتلت ست الملك ابن دواس قتلت الوزير الخطير ومن كانت تخاف منه ممَّن عرف بأمرها[4].

واستطاعت ست الملك، بفضل وصايتها على الظاهر ابـن أخيهـا الحـاكم، أن تعيـد إلى الـدين جلالـه القديم، وتقوم بإصلاحات فيها العدل والنزاهة. على أنها لم تسـتمر طـويلاً في الحكـم، فتوفيـت بعـد أربـع سنوات ولها من العمر ثمانية وأربعون عاماً، وكانت وفاتها سنة 415 هـ

الهوامش:

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان.

(2) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة 4/ 186-187.

(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة 191/4.

(4) النجوم الزاهرة 4/ 192.

المراجع:

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 4/ 176-196.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ 8/ 128-130.
- الروضة الفيحاء: 326-329. أعلام النساء 2/ 571-575.
- الدر المنثور: 240، تراجم إسلامية: 35، خطط المقريزي 2/ 89.
- محمد كامل حسن: سطور مع العظيمات.
- علي إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ نصيب.

تفانو ملكة الروم زوجة أرمانوس ملك الروم

توفيت حوالي 416 هـ

كانت من أهل الشجاعة والبراعة، ومن شجاعتها وشدة براعتها قتلت زوجها أرمانوس، وكان له منها ولدان أحدهما بسيل، والآخر قسطنطين، ثم تزوجت بعد أرمانوس بالملك نقفور، وقام بالمُلك وطغى وتجبَّر، وغزا بلاد المسلمين، وقتل ونهب وسلب وأعطب، ثم إن نقفور طمع بالملك وأراد أن ينتقل الملك بعده إلى عقبه، فهمَّ بقتل أولاد تفانو زوجته، وقيل: أراد أن يخصيهم ليقطع نسلهم، فبلغ ذلك زوجته، فاتفقت مع الدمشتق (الدمستق) على قتل نقفور، فألبست الدمشتق لباس النساء وأدخلته مع النساء إلى كنيسة متصلة بدار نقفور، وانتظروا نقفور حتى نام فهجموا عليه وقتلوه، وأراح الله المسلمين من شرّه، ثم تزوجت تفانو بالملك يانس بن شمشقيق وولته الملك، ثم إنها خافت فأرسلته مع جيش عظيم إلى بلاد الشام، فغنم وسبى، وقتل وأسر، ثم دست عليه زوجته تفانو من سقاه سمّاً، فمات يانس ولم تطل مدته. ثم ملَكت بعده ولدها بسيل سنة سبع وستين وثلاثمائة، وقام بالملك، وحاصر حمص وفتحها سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وكذا شيزر، ثم سار إلى طرابلس وحاصرها أياماً، ثم رحل عنها إلى الروم، وقام بالملك خمسين سنة، ومات سنة ست عشرة وأربعمائة، وكان فيما يزعم من رآه أنه من المسلمين، وأكثر أيمانه: وحق ما في صدري. ذكر ذلك مَنْ رآه من المسلمين إنه كان يعلق على صدره تحت ثيابه مصحفاً، ونظير ما حكى لي رجل من العسكر قال: كنا يوماً في نواحي الشام من جهة القدس، فرأينا ديراً فقصدناه، ودخلنا إليه، ونزلنا فيه، وكان في الدير رهبان، وكنت مقدّم العسكر، فسألت الرهبان عن كبيرهم، فأنكروه، فجعلت أدور في مقاصير الدير، فسمعت صوتاً ضعيفاً من داخل حجرة هناك، فقصدت الصوت حتى انتهيت إلى باب مغلق، وذلك الصوت يخرج من هناك، فأصغيت سمعي فإذا صوت قراءة قرآن، فقرعت الباب فسكت، وقال: مَنْ هذا؟ قلت: أنا مقدم العسكر، فعند ذلك فتح الباب، ودخلت عليه، وقلت له: قد رابني

أمرك، أنت كنت كبير النصارى، وقد سمعت عندك صوت قراءة القرآن. فأقسم عليَّ أن لا أظهر أمره بين النصارى، وقال: الحمد لله أنا مؤمن، أصلي الخمس، وأصوم رمضان، وأقرأ القرآن، وأنا ليلي ونهاري مختفٍ عن الكفار، لئلا يطلعوا على أحوالي، فبحق محمد صلى الله عليه وسلم ، وبحق هذا القرآن لا تفضحني عند عبدة الصلبان، فخرجت من عنده، ولم أُعلِمْ بحاله أحداً من النصارى، غير أني سألت أهل العلم من المسلمين عن هذا الرجل، فقالوا: أما سمعت قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) المائدة: ٨٢.

المراجع:

- الروضة الفيحاء: 331-332، تاريخ ابن الوردي 1/ 295، 310، 311، 337.

تركان خاتون زوجة السلطان

ملك شله إلب أرسلان السلجوقي

توفيت سنة 487 هـ

تزوجها السلطان سنة ثمانين وأربعمائة، فولدت له السلطان محموداً سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، ومات ملك شاه سنة خمس وثمانين وأربعمائة في بغداد، ولما مات أخفت تركان موته، وفرقت الأموال على الأمراء والعساكر وسارت بهم إلى أصفهان، واستخلفت العساكر لولدها السلطان محمود وعمره إذ ذاك أربع سنين، وقامت بتدبير الملك أحسن قيام، ودبَّر الأمر بين يديها تاج الملك بن نظام الملك، وكان في أصفهان السلطان بركيا روق بن السلطان ملك شاه، فهرب من أصفهان خوفاً من تركان خاتون. وتوجه نحو بغداد، وأرسلت تركان خاتون إلى بغداد وخطبوا لولدها محمود في بغداد، وتقوَّى بركيا روق واجتمع عليه خلق عظيم، وملك بعض البلاد فبلغ ذلك تركان خاتون فجهزت العساكر لحرب بركيا روق مع الوزير تاج الدين، فحاربهم بركيا روق وهزمهم وقتل تاج الملك سنة ست وثمانين وأربعمائة، وقدم بركيا روق وحاصر أصفهان، وكانت تركان خاتون مريضة وماتت وهي محاصرة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وأصاب ولدها السلطان محموداً جدري ومات بعدها بأيام قلائل، ومدة ملكه سنتان وأيام قلائل. وطمع بركيا روق، وملك أصفهان وجميع مملكة أبيه، واستقر الملك له، و اللـه الباقي.

الهوامش

الروضة الفيحاء: 275-276. نساء الخلفاء 131-132، المنتظم 9/ 62، النجوم الزاهرة 5/ 162، التاريخ الباهر ص 11.

زمرد خاتون بنت جاولي صاحب مدينة الموصل

توفيت سنة 557 هـ

تزوجها تاج الملك بوري بن طغتكين صاحب مدينة دمشق، وأصدقها أربعين ألف دينار وتحفاً، وحظيت عنده وولدت له: مونحاً ومحمداً وشمس الملوك إسماعيل، وشهاب الدين محرد، ومن أعمالها بناء المدرسة بظاهر دمشق سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وأوقفت لها أوقافاً كثيرة، وتوفي زوجها تاج الملك بوري سنة ست وعشرين وخمسمائة، وسبب موته أن الباطنية وثبوا عليه وجرحوه جرحين، برأ واحد منهم والآخر نسر، ومات به، وملك الشام بعده ولده شمس الملوك إسماعيل، وكان ظالماً، قبض على أخيه وقتله سنة سبع وعشرين وخمس مائة، وفي سنة ثمان وعشرين وخمس مائة، اتهمت أمه زمرد خاتون مع رجل من أمراء دولتهم وسقته السم ومات، وقيل: كرهت ظلمه على الرعية فدسُت عليه من قتله، وملك دمشق بعده أخوه شهاب الدين محمود، واستمر الملك بيده إلى سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة، فقدم عماد الدين زنكي وملك حمص وحصن المجدل، وتزوج زمرد خاتون طمعاً في دمشق، وقتل محمود سنة ثلاث وثلاثين وخمس مائة، وكره عماد الدين زنكي زمرد خاتون لما عجز عن ملك دمشق وطلقها، وأقامت إلى أن مات عماد الدين، فتزوجت زمرد برجل باقلاني لفقرها وشدة احتياجها، فكان إذا لطمها زوجها تقول: لو عرفتني ما ضربتني، وتوفيت سنة خمس وأربعين وخمس مائة.

المراجع

■ الروضة الفيحاء 276-277، أعلام النساء 1/ 449- 450، شذرات الذهب 4/ 90، 103، 178، الدارس في تاريخ المدارس 1/ 502، منية الأدباء: 55.

زمرد زوجة الأمير طغتكين بن أيوب الأيوبي

صاحب بلاد اليمن

توفيت سنة 600 هـ

ولدت له المعز إسماعيل والناصر أيوب، ومات طغتكين في اليمن سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة، فملك اليمن بعده ولده، المعز إسماعيل، وكان ظالماً محبطاً، إدَّعى أنه قرشي أموي، ولبس الخضرة وخطب لنفسه بالخلافة، فقتله مماليك أبيه، بعدما وافقتهم أمُّه زمرد، وأقامت ولدها الصغير الناصر أيوب، وصار أتابكة سيف الدولة سنقر، ومات بعد أربع سنين، فصار أتابكة الأمير غازي بن جبريل، وتزوج زمرد أم الناصر، ثم طغى الأمير غازي وطمع في بلاد اليمن، وسَمَّ الناصر فمات، فاجتمعت العرب وقتلوا الأمير وخلت اليمن، فتغلبت زمرد أم الناصر وملكت زبيد، وأخرجت الأموال، وانفقت على العساكر، وأقامت تنتظر من يقدم من بني أيوب ليملك بلاد اليمن وتتزوج به.

وأرسلت زمرد بعض غلمانها إلى مكة في موسم الحج ليأتيها بأخبار مصر والشام، فوجد سليمان بن شاهنشاه بن أيوب، وكان فقيراً، فحمله معه ذلك الغلام إلى اليمن، وأحضره عند زمرد، فتزوجت به وملَّكتهُ اليمن، فملأ اليمن جوراً، ولم يرعَ حق زمرد، وأعرض عنها، وكتب إلى عمه الملك العادل كتاباً أوله:

"إنه من سليمان، وإنه بسم اللـه الرحمن الرحيم". فاستقل عقله وأهمله. وتوفيت زمرد أم الناصر في حدود سنة ست مائة، و اللـه أعلم.

وفي سنة اثنتي عشرة وست مائة أرسل الملك الكامل ابن العادل ولده الملك المسعود يوسف إلى اليمن في جيش عظيم فملك اليمن، وقبض على سليمان وبعثه إلى مصر، فأجرى له الكامل ما يقوم به إلى أن مات.

المراجع:

- الروضة الفيحاء 277-278، المستظرف من أخبار الجواري: 31، أعلام النسـاء 1/ 450 وفيـه: زمرد خاتون بنت أيوب، تراجم القرنين السادس والسابع لأبي شامة المقدسي: 33.

راضية

توفيت سنة بعد 640 هـ؟؟

تسلقت راضية السلطة في ظروف مغايرة، لأنها على الخلاف من شجرة الدر، لم تكن جارية، بل ابنة ملك، وقد وصل أبوها إلى الهند بصفته عبداً، وسيشكل صعوده إلى مركز السلطان أفضل دعاية للإسلام في البلاد الهندية التي كانت تخضع لنظام الطوائف المتصلب، بدأ الإسلام كديانة ديمقراطية تكسر التراتيبية وتزعزع الأسياد، وتمكن العبيد ذوو الكفاءة من أن يحلوا محل الذين كانوا يحكمونهم، بعث قطب الدين إيبك، الذي كان عبداً لأحد قواد سلاطين خازناه إلى دلهي، وقد حفزه اندفاعه إلى إعلاء راية المسلمين في مناطق الهند، ونجح في ذلك إلى حد ما، بما أن السلطان قطب الدين أيبك الذي أعجب بشجاعته زوجه من ابنته. وبعد وفاة أيبك سنة 607هـ استولى التتمش على السلطة وأعلن نفسه مستقلاً عن خازناه، وسيبقى في التاريخ كأحد الملوك العبيد الكبار الذين فرضوا السيادة الإسلامية بالهند.

وبعدها طرح عليه مشكل الشرعية إثر حصوله على السلطة الدنيوية، وعليه، يقدم وثيقة تثبت عتقه بعد وفاة سيده حتى يغدو مؤهلاً لتسلم السلطة، يقول ابن بطوطة: "فأتاه الفقهاء يتقدمهم قاضي القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاساني، فدخلوا عليه، وقعدوا بين يديه، وقعد القاضي إلى جانبه على العادة، وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه فيه، فرفع طرف البساط الذي هو قاعد عليه، وأخرج لهم عقداً يتضمن عتقه، فقرأه القاضي وبايعوه جميعاً"[1]، وبقي على التتمش اجتياز اختبار الخليفة العباسي، بما أن المماليك يتبعون المذهب السني، ففي سنة 626 هـ بعث التتمش طلباً رسمياً إلى خليفة بغداد المستنصر يطلب منه الاعتراف به، أجاب الخليفة ببعثة استقبلت بحفاوة شديدة في دلهي، حيث أعلنته سلطاناً في الهند بشكل رسمي، ضرب التتمش السكة وطبع عليها ولاءه للخليفة ببغداد من خلال العبارة التالية: "ناصر أمير المؤمنين"، وهو ولاء عرّضه لمحاولة اغتيال من طرف فرقة

شيعية جد نشيطة بالهند، ومشهورة بالاضطرابات التي تسببت فيها، وهي الإسماعيلية، حيث حاول أتباعها قتل التتمش في المسجد وهو يصلي بالناس، ولكنهم فشلوا في محاولتهم التـي خـرج منهـا التـتمش متشـبثاً بالمذهب السني أكثر من أي وقت مضى، وفتح مزيداً من البلدان، وأحاط نفسه بالعلماء والفقهاء، وتوفي في عز مجده بدلهي، نتيجة مرض طارىء سنة 633 هـ بعد حكم دام ستة وعشرين سنة[2].

كان التتمش قد عيَّن ابنته راضية وليةً لعهده، رغم أن له ثلاثة أبناء، وقد زاد ولاية العهـد تعقيـداً إذ إن أبناء التتمش، لا ينتمون جميعاً إلى نفس الأم، مما أثار العداء بينهم وبين راضية، وهو عداء غذَّاه وقواه دسائس الأمهات، انطلاقاً من الحريم، وكان ركن الدين أحد أخوة راضـية الثلاثـة مـن أبيهـا، غـير راض عـن توليتها العهد من طرف أبيه، كما كان أكثر الأخوة تعطشاً للسلطة، وقد كان يُكِنُّ حقداً كبـيراً لراضـية ولأخ آخر له من أبيه، وسينفجر هذا الحقد بعد موت أبيه، ويدفع به إلى مقاومة أخته، وقتل أخيه.

لم يكن التتمش وهو العبد الذي ارتقى بفضـل مواهبـه الشخصـية، يستشـعر أيـة عقـدة مـن جـراء الاعتراف بقيمة المرأة، فالعدل والكفاءة في رأيه أمران متلازمان، وهنا يكمن فهمه الأساسي للإسلام، وبما أنـه كان شديد التدين، فإن كل ما عدا ذلك -بما فيه الفروق بين الجنسين- لم يكن مهـماً في رأيـه، إذا قارنـا بـين ضعف شخصية ركن الدين ومواهب راضية، نـدرك أن هـذه الأخـيرة كانـت تؤهلهـا لولايـة العهـد بشـكل مفروغ منه، وقد أجاب التتمش الأمـراء الـذين طـالبوا منـه تفسـير اختيـاره الـذي فاجـأهم، إجابـة بالغـة البساطة: "إن أبنائي غير قادرين على القيادة، ولذلك اخـترت أن تتـولى ابنتـي الحكـم بعـدي"[3] بعـد وفـاة التتمش، حاول الأمراء والوزراء تنحية راضية لصالح أخيها من الأب ركن الدين، وكان أول مـا قـام بـه هـذا الأخير حين تولى الحكم هو قتل أخيه، معتقداً بأنه سيخيف بذلك راضية، ويعيدها إلى الحريم حيث يلفهـا النسيان، لم تختفِ راضية وراء حجابها فحسب، بل إنها استرجعت الحكم حين

توجهت مباشرة إلى شعب دلهي، واستغلت في ذلك مؤسسة أسسها والدها لمقاومة الظلم "ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً، وأهل الهند يلبسون جميعاً البياض. فكان متى قعد للناس أوركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ، نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه"[(4)].

ولكي يعجل بسير تطبيق العدالة، وتمكين المظلوم من أن يطلب المعونة، قرر أن يضع جرساً أمام باب القصر "فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام، موضوعين على برجين هناك، وفي عنقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير، فكان المظلوم يأتي ليلاً فيحرك الجرس، فيسمعه السلطان، وينظر في أمره للحين وينصفه"[(5)].

لم تجد راضية وسيلة أفضل من اللجوء إلى التقنية التي فرضها أبوها، والتي كان الشعب يعرفها، لقد قررت ارتداء الزي الملوث الذي يرتديه ضحايا الظلم، وشرح ما لحق بها من ظلم للشعب، وطلب معونته للانتقام لأخيها القتيل، وتنحية ركن الدين، الذي كان يهددها بالقتل هي الأخرى، انتظرت يوم الجمعة واجتماع المؤمنين بالمسجد لتنفيذ خطتها، لأنها كانت في حاجة إلى إعلان الأمر، وحين خرج ركن الدين من القصر متوجهاً نحو المسجد صعدت راضية إلى السطح وتناولت الكلمة مرتدية زي المظلومين: "فلما كان في بعض أيام الجمع، خرج ركن الدين إلى الصلاة، فصعدت راضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم، وهو يسمى "دولة خانة" ولبست عليها ثياب المظلومين، وتعرضت للناس وكلّمتهم من أعلى السطح، وقالت لهم: إن أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه، وذكرتهم بأيام أبيها، وفعله الخير وإحسانه إليهم، فثاروا عند ذلك على السلطان ركن الدين وهو في المسجد، فقبضوا عليه وأتوا به إليها، فقالت لهم: القاتل يقتل، فقتلوه قصاصاً بأخيه"[(6)].

كان أول ما قامت به راضية حين تولت الحكم هو سفورها كما يقول لنا ابن بطوطة: "ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته راضية الملك

فولوها. واستقلت بالملك أربع سنين، وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان كما يركب الرجال، ولا تستر وجهها"[7] وهناك مصادر أخرى تقول بأنها: "قصت شعرها وارتدت زي الرجال، وهكذا اعتلت العرش"[8]. وتضيف هذه المصادر بأنها لم ترتد زي الرجال لقيادة الحملات العسكرية فحسب، ولكن للمحافظة على الاتصال بالشعب "كانت تتجول في الأسواق مرتدية زي الرجال، وتجلس بينهم، تستمع إلى تظلماتهم"[9].

وعلى كل، فقد قامت راضية بمهمتها أحسن قيام، واجمع المؤرخون على كونها إدارية ممتازة، وهم لم يؤاخذوها إلا على شيء واحد هو وقوعها في غرام رجل كان أقل منها امتيازاً، وقصة الحب هذه ستعجل بسقوطها، ولكن الأمر لم يخلُ من حوادث مفاجئة، كما هو الشأن في الأفلام الهندية الجيدة.

كانت راضية تقدر خصال أحد المكلفين بخيولها، يدعى جمال الدين ياقوت، وهو حبشي قررت ترقيته بسرعة أغضبت القواد الآخرين، فبدأوا يشكون في حبها له، كان لقب ياقوت هو أمير الخيل، ولكن راضية لقبته بعدها بوقت قصير بأمير الأمراء، ولم يرض العديد من هؤلاء بهذا التغيير الذي أحلَّ الأمراء محل الخيول، فغضبوا: "وشرعوا في التجسس عليها لفهم أسباب هذه الترقية السريعة، ولاحظوا بأنها كانت فعلاً تستأنس به كثيراً، وكانت تعفيه من عدة مهام كان عليه القيام بها"[10]، بل الأدهى من ذلك أنهم بدأوا يتجسسون علي كل حركاتها هي والمكلف بخيولها، إلى حد أنهم لاحظوا ذات يوم قيامه بحركة جريئة حين شاءت راضية ركوب فرسها: "فوضع يديه تحت إبطيها لكي يركبها الفرس"[11]. شاع الخبر في المدينة بأن "عمدة النسوان وملكة الزمان" السلطانة لا تحترم الأخلاق، وتتيح لعبد أن يلمسها، وبذلك حقق أعداؤها مرادهم... "ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبشة، فاتفق الناس على خلعها وتزويجها، فخُلعت وزوجت من بعض أقاربها"[12].

وهكذا انتصرت الهند الطائفية رغم الإسلام، حيث تضافرت السلطات الدينية والأمراء ضدها، وجهزوا جيشاً بقيادة الوالي اختيار الدين، خشيت راضية من

الحصار، فغادرت دلهي مع جيشها لمحاربة هذا الأخير، ولكنها انهزمت وسقطت أسيرة بين يديه، ولكن ما حدث شكَّل تحولاً مفاجئاً في الوضع، إذ سقط اختيار الدين في غرام راضية أسيرته، فحررها وتزوجها، وعاد معها على رأس جيش كبير لإعادة فتح دلهي، والاستيلاء من جديد على عرش محبوبته[13]، ولكن سوء الحظ لم يكن ليفارق راضية، حيث انهزمت هي وزوجها، وتقهقر جيشهما، ففرت راضية، ويصف لنا ابن بطوطة نهايتها التي نجدها في العديد من حكايات ألف ليلة وليلة: "... فأدركها الجوع، وأجهدها الإعياء، فقصدت حرَّاثاً رأته يحرث الأرض فطلبت منه ما تأكله، فأعطاها كسرة خبز فأكلتها، وغلب عليها النوم، وكانت في زي الرجال، فلما نامت نظر إليها الحراث وهي نائمة، فرأى تحت ثيابها قباء مرصعاً، فعلم أنها امرأة، فقتلها وسلبها، وطرد فرسها ودفنها في فدانه، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق ليبيعها، فأنكر أهل السوق شأنه، وأتوا به الشحنة وهو الحاكم، فضربه فأقر بقتلها، ودلهم على مدفنها، فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها، ودفنت هنالك وبُني على قبرها قبة"[14]. وقد استخلص ابن بطوطة خلال رحلته بأن الشعب جعلها في عداد الأولياء: "وقبرها الآن يزار ويتبرك به، وهو على شاطىء النهر الكبير المعروف بنهر الجون، على مسافة فرسخ واحد من المدينة"[15].

الهوامش

(1) ابن بطوطة، الرحلة، المجلد الثاني ص 368.

(2) ابن بطوطة - السابق.

(3) محمد يوسف النجرمي، العلاقة السياسة والثقافية بين الهند والخلافة العباسية ص 125.

(4) ابن بطوطة الرحلة، 2/ 368.

(5) السابق ص 322.

(6) السابق نفسه ص 370.

(7) ابن بطوطة ص 370.

(8) بدرية اسوك: النساء الحاكمات.

(9) محمد يوسف نجرمي: العلاقة السياسة والثقافية ص 125.

(10) عمر كحالة: أعلام النساء 1/ 448، النجرمي، مصدر سابق ص 125.

(11) عمر كحالة ص 450.

(12) ابن بطوطة، الرحلة ص 370.

(13) نفسه ص 423.

(14) ابن بطوطة الرحلة ص 423.

(15) السابق نفسه.

المراجع:

- محمد يوسف النجرمي: العلاقة لسياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية، دار الفكريـة، بيروت 1979 ص 122 وما بعدها، ابن بطوطة، الرحلة، المجلد الثاني ص 368. عمـر رضـا كحالـة، أعلام النساء، بدرية أسوك، النساء الحاكمات، وانظر ترجمة التتمش في دائرة المعارف الإسلامية.

تركان خاتون من قبيلة بيارون من فروع يمك

توفيت حوالي 650 هـ

وهي بنت ملك منهم، وكانت من أجمل النساء هيبةً ووقاراً، مع حسن رأي وأفكار، تزوجها خوارزم شاه تكش بن أرسلان شاه بن أطزشاه بن محمد شاه بن الفرش تكين، وحظيت تركان عند تكش وولدت منه محمد شاه. ولما مات تكش ملك بعده ولده محمد شاه، وكان صغيراً. فدبرته أمه تركان خاتون، وكان لها رأي وهيبة، تنتصف للمظلوم من الظالم، جسورة على القتل، ولها في كل إقليم ناحية جليلة، تقدم من توقيعها وتوقيع ابنها تاريخاً.

وطغرى تواقيعها: عصمة الدنيا والدين الخ... تركان ملكة نساء العالمين، وعلامتها: اعتصمت بالله وحده، تجوِّدُها بقلم غليظ، وأقامت في أرغد عيش، إلى أن ظهر التتار وحاربوا ولدها محمد شاه، وهرب إلى جزيرة، ولحقه مرض ذات الجنب، وأقام بالجزيرة إلى أن مات. وكُفِّنَ في قميصه لعدم وجود الكفن، فسبحان من يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

المرجع:

- الروضة الفيحاء: 350.
- أعلام النساء 1/ 142، وفيه: تركان خاتون من قبيلة بياووت، سيرة جلال الدين منكبرتي - للنسوي 38-42، 55 وفيه قبيلة بياووت أيضاً.

شاهان مولاة المستنصر بالـلـه

توفيت سنة 652 هـ

كانت جارية رومية على مَلِك خَتا خاتون بنت الأمير سُنْقُر الطويل الناصري زوجة الأمير جمال الدين بَكْلَك الناصري. اعتنت بتأديبها وتربيتها، وشَمِلَتْها فظهرتْ عليها آثار السعادة ومخايل النجابة، فلـما بويـعَ المستنصر بالـلـه أهدتْها له في جملة جَوارٍ، فحظيَتْ عندَهُ من بينهنَّ وتقدَّمتْ وصارت لها المنزلة الرفيعـة، والمكانة العالية، والمقام الذي لا يصل إليه غيرها من القرب والاختصاص، وصـار لهـا بـاب مُفْـرَد وديـوان ووكلاء ونوَّاب، وخَدَمٌ وحاشية جميلة، وأُمْرِجَتْ في الأموال تتصَرَّفُ فيهـا عـلى حسـب لإيثارهـا واختيارهـا، وتأمر وتنهي بأتمِّ أمرٍ وأنفذ حُكْمٍ. حدَّثَ بعضُ نواب ديوانها أنها عَمِلَتْ حِسْبةً شهرية لِما أُطلِـقَ فيـه إلى السُناكرة[1]، والزراكشة والصاغة والتجار والبزازين والجـوهريين، وأربـاب الصـنائع عـلى اخـتلاف صـنائعهم مائة ألف دينار وخمسة آلاف وثلاثمائة ونيِّف وستون ديناراً، وكانت كثيرة البرِّ والمعـروف والتفقـد للفقـراء والأرامل والأيتام، دائمة الصدقات، مائلة إلى الخير، راغبة في فعله، مُحِبَّةً لأهلِهِ. ولما تـوفي مولاهـا المستنصرـ بالـلـه وبويع ولده المستعصم بالـلـه أجراها على عادتها في الإكرام، ووفَّـرَ نصـيبَها مـن التبجيـل والإعظـام، ونقلها بجواريها وخدمها، وأتباعها وحَشَمها، إلى الدار التي نشـأت بهـا عنـد سِـتِّها، المعروفـة بـدار بنفشـا، المجاورة لباب الغربة الشريف، وقد ذكـرت تـاريخ بنـاء هـذه الـدار في الأيـام للجهـة بنفشـا ثـم في الأيـام الناصرية، حيث أُنْعِمَ بسكنى هذه الدار على ختا خاتون بنت سُنْقُر الطويل الناصري، أُضيفَ إليها مـا كـان يجاورها من الخانات والدُّور، وأُنشيء فيها بستان، ونُقِل إليه من جميع الأشجار، فصار يـانع الـثمار، ملـيح الأزهار، وأُجريَتْ إليه المياه من الدواليب التي تسقي بسـاتين الـدار العزيـزة، ويُقابـل هـذه الـدار بسـتان فاخر، وشجر مثمر زاهر، ومنظر عجيب باهر، فالجالسُ في مناظر هذه الدار يُشرفُ عـلى دجلـة وجسرهـا، فهي نزهة العيون، وفرحة القلب المحزون، ورُتِّبَ لها البوابون والفراشون والمشائيّة، وأقرَّتْ على

جميع ما كان يصلَ إليها في الآيام المستنصرية من الراتب والجاري من المخزن المعمور، وجُعِل في بابها عدل ملازم جميع النهار، مُنَفِّذاً ما تأمرُ به، ومُثْبِتاً ما يجري على يد الخدم المختصين بخدمتها.

الهوامش

(1) أو البنادرة: جمع البندار، من يكون مكثراً من شيء يشتري منه من هو أسـفل منـه وأخـف حالاً وأقل مالاً، ثم يبيع ما يشتري من غيره، وهذه لفظة أعجمية. الأنساب للسمعاني.

المراجع:

- العسجد المسبوك في تاريخ دولة الإسلام والملوك، لعلي بن الحسن الخزرجي. الجامع المختصر 9/ 28، 46، 11، 121، 275، تلخيص معجم الألقاب 4/ 68، شذرات الـذهب 5/ 170، نسـاء الخلفـاء المسمى جهات الأئمة من الحرائر والإماء لابن الساعي، تحقيق مصـطفى جـواد ص 119-122، ط دار المعارف، مصر 1993م.

شجرة الدر جارية الصالح أيوب

توفيت سنة 655 هـ

كان حكم **شجرة الدر** إعلاناً عن نهاية العباسيين وسقوط بغداد على يد المغول سنة 656 هـ وقد ساعد هذا جيوش العبيد المماليك الذين استولوا على الحكم في بلاد عديدة، وسيحتفظون به لأكثر من قرنين في مصر وسوريا.

تفاوضت شجرة الدر منذ البداية مع قواد الجيش لكي تخفي موت زوجها، وهو شرط ضروري في رأيها لتجنب الاضطرابات، وبعدها خططت معهم العمليات لمواجهة الفرنسيين الذين حاصروا مصر بقيادة ملكهم سان لوي خلال سنتين بين647 و649، وبعد الانتصار عليهم، وأسر ملكهم، حاولت شجرة الدر الالتفات إلى مشاكل ولاية العهد، إذ كان لزوجها ابن يدعى "توران شاه" وكان متغيباً عن القاهرة وقت وفاة أبيه، وقد أرسلت إليه شجرة الدر مبعوثين في البداية كي يخبروه بالأحداث الطارئة في القصر وفي الجبهة، وطلبت منه موافاتها في القاهرة، وحين عودته سلمته مقاليد الحكم، ولكن توران شاه أبان عن ضعفه في قيادة الجيش، حيث ألَّبَ عليه الضباط، ولم يستطع أن يفرض عليهم احترامه كما كان عليه الحال مع أبيه، وقد احتدم الصراع بينه وبينهم حتى اغتالوه سنة 648 هـ ثم قرر المماليك تسليم العرش إلى شجرة الدر. وما أن اعتلت شجرة الدر العرش حتى بدت معاناتها، من جراء معارضة الخليفة العباسي الذي رفض الاعتراف بها، وهو رفض أجبر الجيش على إعادة النظر وسحب الثقة من الملكة، لأن المماليك البحرية في مصر الذين قرروا في النهاية الاستيلاء على الحكم وتأسيس مملكة عوضاً عن الاستمرار في خدمة الآخرين، كانوا في أشد الحاجة إلى اعتراف خليفة بغداد بهم، ورغم إعجابهم بشجرة الدر فقد أجبروا على تنحيتها بعد شهور معدودة، وما أن عرفت شجرة الدر باسم القائد الذي اختاره الجيش لمقابلة الخليفة بصفته مرشحاً لمركز السلطنة حتى فكرت في الزواج به، وكان القائد يدعى المعز عيبق التركماني، وكان أقوى قواد المماليك، وثق به الجيش فنال موافقة الخليفة، وتزوجت

منه شجرة الدر، ونجحت مرة أخرى في اقتحام مسرح سياسي ظل مستعصياً عليها رغم مواهبها المتعـددة، وكان هاجسها الأول هو تجنب العودة إلى ظل الحريم البارد، ولكي لا تسقط من جديـد في النسـيان الـذي يفرضه المجال الأنثوي، سعت إلى أن تلقى الخطبة في مساجد القاهرة باسمها هـي وزوجهـا، كـما حرصـت على أن تضرب السكة باسميهما، وأن يمضيا معاً كل الوثائق الرسمية الصادرة عن القصر[1].

ولفرط جمال زوجته، سماها الصالح شجرة الدر، وحظيت عنده وأحبَّها، ولم تحمل منه، وقيل ولدت له ولداً سمَّاه خليلاً ومات وهو صغير، ولما مات الصالح أيوب سنة سبع وأربعين وستمائة، أحضرت شـجرة الدر فخر الدين ابن الشيخ، ومحسناً الطواشي، وجمعوا الأمراء، وأخفت شجرة الدر موت الصالح أيوب، ثم خرجت إلى الأمراء من وراء حجاب، وقالت لهم: السلطان يأمركم أن تحلفوا لولده المعظـم، فإنـه عهـد لـه بالملك من بعده، وجعل أتابكه ابن الشيخ فخر الدين، ويأمركم أن تحلفـوا أيضـاً لأتابكـه، فحلفـوا لـه، ثـم أظهرت شجرة الدر موت الصالح أيوب بعد ما استدعت المعظم تـوران شـاه ابـن الصـالح أيـوب، وكـان في حصن كيفا.

وشاع موت الصالح، فتقدمت الفرنج إلى جهة مصر وطمعـوا في المسـلمين، ووقعـت وقعـة عظيمـة، وقتل فخر الدين ابن الشيخ مستهل رمضان، ثم نصرَ الـلـه المسـلمين، وأخـذوا مـن الفـرنج اثنـين وثلاثـين مركباً، وهرب الفرنج، ثم قدم المعظم وبايعوه، وجددوا له البيعة بمصر وذلك سـنة سـبع وأربعـين. وتجهـز بالعساكر من مصر سنة ثمان وأربعين وستمائة، وحارب الفـرنج، وكسرهـم، وقتـل مـن الفـرنج، ثـم أطلقـه وشرع المعظم في إبعاد أمراء أبيه، وتقرب غيرهم فمقتوه، ثم قتلوه، فقامت بالمملكة شجرة الدر، وخطـب باسمها، وكان نقش السكة "المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصـور خليـل"، وجعلـت علامتها على التواقيع والمناشير والدة خليل، وصار أتابك العساكر عز الدين أيبك، ثم إنَّ رَيْد فرانس ملك

الفرنج تقدم إلى نوّابه، وسلّم دمياط للمسلمين وأطلق ريد فرانس، وفي ذلك يقول ابن مطروح:

قل للفرنسيس إذا جئته   مقال صدق عن قؤول فصيحْ

قد جئتَ مصراً تبتغي ملكها   تحسب أن الزمر يا طبل ريحْ

أتيتَ مصراً تبتغي ملكها   تحسب أنَّ الزمر يا طبل ريحْ

رحتَ وأصحابك أودعتهم   بقبح أفعالك بطن الضريحْ

خمسون ألفاً لا يرى منهم   غير قتيل وأسير جريـــحْ

وقل لهم إن أضمروا عودة   لأخذ ثأر أو لقصد صحيحْ

دار ابن لقمانَ على حالها   والقيدُ باقٍ والطواشي صبيحْ

ثم إن شجرة الدر تزوَّجت عز الدين أيبك واستقل بالسلطنة، وطالت أيامه، وخطب بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فبلغ ذلك شجرة الدر، فغضبت لذلك، ولما دخل عز الدين أيبك الحمام جهَّزت شجرة الدر الجواري والخدم، فدخلوا على أيبك وقتلوه في الحمام، وبلغ ذلك مماليك أيبك فعزموا على قتل شجرة الدر، فحماها مماليك الصالح. ونقلت شجرة الدر إلى البرج الأحمر، ثم قتلوها سنة خمس وخمسين وستمائة.

لقد كانت نهاية راضية المأساوية، بمثابة إعلان عن ملكة أخرى من دولة المماليك، ستحذو حذوها بعد ذلك بعقد من الزمان آلت شجرة الدر مآلاً مأساوياً، ولكنها لم تكن بريئة كشأن راضية التي سبقتها، لقد جعلها شغف الحب غيورة إلى حد أن تصبح قاتلة، ذلك أن الحب والزواج الأحادي لا يفترقان في رأيها، الشيء الذي لم يكن مفروغاً منه بالنسبة لزوجها الثاني عز الدين أيبك رجل الجيش القوي. وعندما تزوجته، كانت قد منحته في الواقع عرشاً.

طلق عز الدين زوجته الأولى أم علي[2] ولم يكن زواجه من شجرة الدر مجرد معاهدة سياسية، بل جسد شيئاً أكثر من هذا، وهذا الشيء يدعى الحب، ذلك أن

الحب بالنسبة لشجرة الدر يفرض الوفاء، وهو وفاء فرضته على زوجها الأول، الملك الصالح نجم الدين أيوب حين غدت محظيته.

كانت شجرة الدر فاتنة وذات ذكاء خارق "كانت ذات عقل حاد تستغله في شؤون الدولة". وكانت إلى جانب ذلك تحب القراءة والكتابة "كانت كاتبة وقارئة"[3]، ولذلك عظمت دهشتها حين علمت بأن زوجها الثاني الذي يعود إلى أصل مملوكي تركي مثلها، عازم على الزواج بابنة أحد الملوك. استشعرت الإهانة، وكانت غيرتها شديدة، إلى حد أنها فكرت في القتل، ودبرت خطة نادرة، لقد اختارت لحظة انتشاء، وهي لحظة الختام، وكان اليوم هو الثالث والعشرون من ربيع الأول سنة 655 هـ "حين دخل عز الدين أيبك الحمام، كانت شجرة الدر قد دبرت كل شيء، وأعطت أوامرها لجواريها وخدمها، فأحطن به وقتلنه وهو في الحمام"[4].

زعزع مقتل أيبك الجيش، رغم أن فريقاً منه ظل مناصراً لشجرة الدر، إلا أنها اقتيدت إلى البرج الأحمر، واغتيلت في نفس السنة، وقد رمي جسدها نصف عار من فوق مرتفع صخري، وظلت كذلك عدة أيام قبل أن تدفن[5]. وبإمكاننا اليوم أن نزور قبر شجرة الدر في القاهرة، حيث دفنت في ساحة مدرسة كانت قد شيدتها، معروفة اليوم باسم جامع شجرة الدر، وبإمكان الزائر أن يقرأ على حائط المسجد عبارة طويلة، تذكر بحكمها وأمجادها، حيث يعثر على اللقب الذي أحبته "عصمة الدنيا والدين".

هكذا انتهت حياة شجرة الدر السياسية، تلك المرأة التي نجحت في أن تتقاسم السلطة مع زوجها الأول الأرستقراطي، وأن تحكم رسمياً ثمانين يوماً دون إذن الخليفة، بعد وفاة زوجها الأول، وأن تتمكن أخيراً من الجمع بين الحب والسلطة مع رجل من طبقتها وجنسها، حيث تقاسم معها الدعاء في صلاة الجمعة وقيادة المملكة قبل أن تستسلم لشيطان الغيرة. استمر تقاسم شجرة الدر وعز الدين أيبك العبادة والحكم سبعة سنين، وقد كان بإمكان ذلك أن يستمر، لولا قراره الزواج من ثانية[6]، يذكرنا ذلك بأشياء منها العلاقة بين الاستبداد والتعدد، حين تصل امرأة إلى الحكم.

وتكون بالإضافة إلى ذلك جارية، فإن الحجاب يتمزق وينكشف السر ويبدو أن تقاسم الرجل للسلطة بالمساواة بينه وبين المرأة، يفرض عليه بالضرورة الزواج الأحادي، كقاعدة للعبة الحب، يصعب التمييز بين السلوك العاطفي والسياسي، رغم محاولة القيام بذلك، لأنهما حسب ما يبدو يستمدان أسسهما من نفس المنابع.

الهوامش

(1) من الروضة الفيحاء 281.

(2) الزركلي، الأعلام 142/4.

(3) الزركلي، الأعلام 142/4.

(4) ياسين الخطيب العمري، الروضة الفيحاء ص387.

(5) المقريزي، ذكر في تراجم إسلامية، ص 92.

(6) المقريزي نفسه ص 238.

المراجع:

الروضة الفيحاء: 281-282، المستطرف من أخار الجواري: 35-36، أعلام النساء 2/ 680-684، مرآة الجنان لليافعي 4/ 137، النجوم الزاهرة 6/ 307، 308،331، 332، 333، 364، 368، 372، 373، 379، مرآة الزمان 8/ 774، الدر المنثور: 255. ديوان ابن مطروح: 181

وانظر: عمر كحالة: أعلام النساء في العالم العربي والإسلام 267/2. خير الدين الزركلي: الأعلام، زينب فواز العاملي: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور. محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية ص 61. علي إبراهيم حسن: لهن في تاريخ الإسلام نصيب ص 115، ط مكتبة النهضة المصرية. ياسين الخطيب العامري: الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، تحقيق علي عمرة، الدار العالمية، 1987. بدرية أسوك أن: النساء الحاكمات في التاريخ ص 47، بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية ص 29.

بيرخان بنت الشاه طهماسب

توفيت سنة 984 هـ

طهماسب ابن الشاه إسماعيل بن حيدر بن جنيد بن إبراهيم بن الخوجا علي بن صدر الدين بن صفي الدين بن جبرائيل، ينتهي نسبه إلى الإمام علي رضي اللـه عنه، وبيرخان هي أخت الشاه إسماعيل لأمه وأبيه، وكانت كاملة العقل، حسنة التدبير، وكان لها أخ من أبيها اسمه حيدر، وأمه مقربة عند الشاه طهماسب، وكان الشاه قد غضب على ابنه اسماعيل وسجنه في قلعة الموت، فخافت زوجة الشاه طهماسب على الملك أن يليه ابن زوجها إسماعيل، وهي التي عملت على حبسه، فعمدت إلى زوجها ووضعت له سُمَّاً في النورة، ولما تنَوَّر وقعت مذاكيره، وعلم أن ذلك بأمر ولده حيدر، فاستدعاه، وقال له: لِمَ فعلتَ هذا؟ أتظن تتمتع بعدي بالمُلك؟ وخرج حيدر من عند أبيه، فاستدعى الشاه ابنته بيرخان وخبَّرها بما فعلته زوجته بأمر ولدها حيدر، وأعطاها الخاتم، وقال لها: دَبري على هلاك حيدر، واستدعي أخاكِ إسماعيل من ألموت[1]، فخرجت بيري خان واستدعت بعض مماليك أبيها، وأرسلتهم إلى داخل خزينة الشاه، وأمرتهم أن يكمنوا إلى أن يأتي حيدر ويقتلوه، فقبلوا وكمنوا، ثم استدعت أخاها حيدر وأعطته الخاتم، وقالت له: امضِ إلى الخزينة وانظر ما فيها. فسار من وقته، فلما حصل في الخزينة لم يشعر إلا والرجال قد أحدقوا به وضربوه بالسيوف وقتلوه. ومات الشاه طهماسب في ذلك الوقت سنة أربع وثمانين وتسعمائة، ودفن معه ولده حيدر، ثم ركبت بيري خان وسارت إلى قلعة ألموت وأطلقت أخاها من الحبس، وفوَّضت إليه أمر المملكة.

وكان الشاه إسماعيل أولاً شيعياً ثم صار سنياً، وسبب ذلك أنه رأى النبي صلى اللـه عليه وسلم في المنام وأصحابه الأربعة عنده. فتقدم إلى عليّ رضي اللـه عنه، فأعرض عنه، فقال له: لأي شيء يا إمام؟ قال: لبغضك الصدّيق، فتقدم إلى الصدّيق واعتذر وتاب، فبشَّره الصدّيق رضي اللـه عنه بالخلاص من الحبس على يد رجل، فلا تجتمع به فإنه يغدر بك، ثم

يأتيك آخر فصدقه، وتوجه معه. فلما مات أبوه أرسل إخوه حيدر يدعوه ليقبض عليه ويقتله، فما قدر، وقتل حيدر، وجاءت أخته ببرخان، فصدَّق كلامها، وسار معها وجلس على سرير الملك، وصار سنياً وقتل .... ثم غدر بأخته ببرخان وقتلها سنة أربع وثمانين وتسعمائة.

والغدر من شيم النفوس فإن تجد ذا عــفة فلعـلّةٍ لا يظــلمِ

ولم تطل أيام الشاه إسماعيل، ومات سنة خمس وثمانين وتسـعمائة، وقيـل: هجـم عليـه خـدّام أبيـه وقتلوه، حيث خالفهم، وبلغ مَنْ قتل في أيامه فكانوا ثلاثين ألف رافضي. وهذا لـولا غـدره بأختـه لحمـدت سيرته.

الهوامش

(1) ألموت: بفتح الهمزة ثم لام مفتوحة وميم مضمومة، وهي من نواحي قزوين. الكامل لابن الأثير 10/ 215.

المراجع:

■ الروضة الفيحاء: 345 - 346، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة 3/ 136، وسماها: بري خان خانم. الكامل 10/ 215.

المصادر والمراجع

- ❖ الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، ط مصر 1939 م.
- ❖ أعلام النساء: عمر كحالة، بغداد 1973 م. و ط دمشق 1395 هـ
- ❖ الأعلام: خير الدين الزركلي، ط دار العلم للملايين، بيروت 1980 م.
- ❖ الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، ط ساسي، وط دار الكتب المصرية.
- ❖ تاريخ التمدن الإسلامي: جرجي زيدان، ط مصر 1931 م.
- ❖ تاريخ الخلفاء: السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط السعادة، مصر 1959 م.
- ❖ تاريخ الأمم والملوك: الطبري، ط الاستقامة، مصر 1939، وط دار المعارف مصر 1967 م.
- ❖ تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، بغداد 1950- 1985 م.
- ❖ تاريخ ابن الوردي: عمر بن المظفر الوردي، سماه: تتمة لمختصر في أخبار البشر، ط مصر 1285 هـ
- ❖ التحفة الملوكية في الدولة التركية: بيبرس المنصوري.
- ❖ تراجم إسلامية، شرقية وأندلسية: محمد عبد اللـه عنان، ط مصر 1947 م.
- ❖ الجامع المختصر، في عنوان التواريخ وعيون السير: علي بن أنجب المعروف بابن الساعي، ط بغداد 1934 م.
- ❖ الحدائق الغناء في أخبار النساء: أبو الحسن المالقي، ط ليبيا وتونس 1978 م.
- ❖ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط مصر 1947 م.
- ❖ الحور العين: نشوان الحميري، ط مصر 1948 م.
- ❖ الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النعيمي الدمشقي، ط المجمع العلمي العربي، دمشق 1367- 1370 هـ
- ❖ الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: زينب فواز العاملي، ط مصر 1312 هـ
- ❖ رسالة في شري الرقيق: ابن بطلان، سلسلة نوادر المخطوطات، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1954 م.
- ❖ الروضة الفيحاء في تواريخ النساء: ياسين بن خير اللـه العمري، تحقيق رجاء السامرائي، ط الدار العربية للموسوعات.

❖ سطور مع العظيمات: محمد كامل حسن، ط دار البحوث العلمية، بيروت 1969 م.

❖ شذرات الذهب: ابن العماد: ط القاهرة 1350 هـ

❖ ضحى الإسلام: أحمد أمين، ط مصر 1961 م.

❖ ظهر الإسلام: أحمد أمين، ط مكتبة النهظة، مصر 1966 م.

❖ المسجد المسبوك في تاريخ دولة الإسلام والملوك: علي بن الحسن الخزرجي الأنصاري، مخطوط في مكتبة الحرم بمكة المكرمة.

❖ العلاقة السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية: محمد يوسف النجرمي، ط بيروت 1979 م.

❖ الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ط بيروت، دون تاريخ، وط مصر 1349 هـ

❖ الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزي، ط بيروت 1949 م.

❖ مرآة الجنان: اليافعي، ط حيدر آباد 1337- 1339 هـ

❖ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها: عبد اللـه عفيفي، ط دار الرائد، بيروت 1982 م.

❖ مروج الذهب: المسعودي، ط دار المعارف، بيروت 1983 م.

❖ مسالك الأبصار: ابن فضل اللـه العمري، ط مصر 1924 م.

❖ المستظرف من أخبار الجواري: السيوطي، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط بيروت 1963 م.

❖ المنتظم: ابن الجوزي، ط حيدر آباد، الدكن 1357 هـ

❖ منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء: العمري، ياسين بن خير اللـه الخطيب، ط الموصل 1955 م.

❖ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي، ط دار الكتب المصرية 1348- 1375 هـ

❖ النظم الإسلامية: علي إبراهيم وحسن إبراهيم، ط مصر.

❖ النساء الحاكمات: بدرية أسوك

❖ نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء: ابن الساعي، تحقيق مصطفى جواد، ط دار المعارف، مصر 1993 م.

❖ نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب: علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1970 م.

- نفح الطيب: المقرى التلمساني، احمد بن محمد، تحقيق احسان عباس، ط بيروت 1967 م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري، ط دار الكتب 1925 م.
- الوافي بالوفيات: الصفدي، تحقيق محمد يوسف نجم، ط دار النشر، فرانز شتاينر 1973 م.
- يتيمة الدهر: الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط السعادة، مصر 1956 م.

فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم بن المدبر: 65.

إبراهيم بن المهدي: 46.

ابن الأثير: 72، 76.

أحمد بن أبي طاهر: 63.

أحمد بن طولون: 8، 70، 71.

أحمد بن العباس (أخو أم موسى القهرمانة): 78.

أحمد بن عبد اللـه بن أحمد الخصيب: 77.

اختيار الدين، الوالي: 108، 109.

ارمانوس (ملك الروم وزوج تفانو): 9، 95.

أسماء، أخت الخيزران: 45، 47.

إسماعيل بن صبيح: 55.

الأصفهاني: أبو الفرج: 63.

أفلاطون: 38.

اورليانوس (امبراطور): 29، 31، 32.

(ب)

بانوكة بنت المهدي: 50.

بدر الدين لؤلؤ: 9، 121.

بدونة زوجة توقيل ملك الروم: 8، 61.

برجوان (مُربي الحاكم بأمر اللـه): 90.

بركيا روق (ابن السلطان ملك شاه): 99.

بسيل بن ارمانوس: 95.

ابن بطلان: 11، 12، 15.

ابن بطوطة: 105، 107، 109.

أبو بكر الصديق: 42.

بلقيس ملكة سبأ: 7، 21، 22، 24.

أم البنين: 47.

(ب)

بوري بن طغتكين: 109.

بيرخان بنت الشاه طهماسب: 10، 125.

(ت)

تاج الملك بن نظام الملك: 99.

تركان خاتون: 99.

تُبع ملك همدان: 23.

التتمش (ملك وقائد): 9، 105، 106.

تدورة (عجوز، ساحرة): 35.

تربيلوس: 27.

تركان خاتون (من قبيلة بيارون، زوجة الملك السلجوقي): 9، 99، 113.

بن تغري بردي: 73، 85.

تقانو ملكة الروم: 9، 95.

توران شاه ابن الصالح أيوب: 119، 120.

توقيل ملك الروم: 8.

(ث)

ثمل قهرمانة شغب أم جعفر: 75، 78، 80.

ثومال قهرمانة شغب ام المقتدرك 75، 76.

(ج)

جالينوس (امبراطور): 29.

جذيمة الأبرش: 29، 30.

جعفر المصحفي: 84.

جعفر المقتدر باللـه العباسي: 75، 77، 78.

جعفر بن الهادي: 51، 53.

جمال الدين بكُلك الناصري: 115.

(ح)

الحاكم بأمر اللـه: 9، 89.

حامد بن العباس: 77.

ابن حزم: 16، 45، 49.

الحكم المستنصر بالـلـه: 8، 83، 84.

حمزة عم النبي عليه السلام: 41.

حيدر أخو بيرخان: 126.

حيدر بن الشاخ طهماسب: 125.

(خ)

خوارزم شاه تكش بن أرسلان شاه: 113.

الخيزران (زوجة المهدي وأم الهادي وهارون الرشيد): 7، 8، 10، 18، 45، 46، 56.

(د)

داود بن سليمان: 23.

دركون بن بطلوس: 36.

أبو دلف العجلي (القاسم بن عيسى العجلي): 63.

دلوكة بنت الزبّاء: 7، 35، 36.

الدمستق الحاكم: 95.

ابن دؤاس: 92، 93.

(ر)

الراضي بن المقتدر: 77.

راضية بنت التتمش: 9، 105، 106، 107، 108.

الربيع بن زياد: 51.

ركن الدين التتمش: 9، 106، 107.

ريدان الصقلي: 90.

رَيْد فرانس (ملك الفرنج): 120، 121.

ريطة الأميرة بنت السفاح (زوجة المهدي): 8، 46، 48، 53.

(ز)

الزُّباء بنت عمرو بن حيَّان، ملكة تدمر: 27، 28، 29، 30، 31، 35.

زمرد خاتون بنت جاولي، زوجة طغتكين الأيوبي: 9، 101، 103.

زنوبيا ملكة (الزباء، زينب): 27، 29، 31.

زيدان القهرمانة: 80.

زينب بنت سليمان: 54.

(س)

سابور الملك: 39.

الساطرون الملك: 7.

سان لوي (ملك الفرنسيين): 119.

ست الملك بنت العزيز الفاطمية: 9، 89، 90، 91، 92، 93.

سجاح بنت الحارث التميمية: 7، 8، 41.

سعيد بن حُميد: 64، 48.

السفاح (عبد اللـه بن محمد): 46، 48.

سلسل أخت الخيزران: 45، 57.

السلطان محمود بن تركان خاتون: 99.

سلمة أم المنصور: 16، 50.

سليمان بن شاهنشاه بن أيوب: 9، 10.

سليمان الحكيم: 7، 22، 23، 24، 27.

سنان بن ثابت: 75، 78.

سنقر الناصر بن الأمير: 115.

سيف الدولة داوس بن سنقر: 91، 103.

(ش)

الشاه إسماعيل: 125، 126.

شاهان مولاة المستنصر باللـه: 115.

شجرة الدر جارية الصالح أيوب: 7، 9، 119، 120، 121، 122.

شغب جارية، زوجة المعتضد، وأم المقتدر باللـه جعفر: 7، 8، 75، 80.

شمس الملوك إسماعيل: 9، 100.

شمس الملوك بن بوري بن طغتكين: 101.

(ص)

الصالح أيوب: 120.

صالح بن وصيف: 71، 72، 73.

صبيحة زوجة الحكم المستنصر بالـلـه: 8، 83، 85.

الضيزن (الساطرون): 39.

(ط)

الطبري، محمد بن جرير: 16، 46، 48، 55.

طغتكين بن أيوب: 9.

طهماسب بن الشاه إسماعيل: 125.

(ظ)

الظاهر بن الحاكم بأمر الـلـه: 93.

الظاهر لإعزاز دين الـلـه: 92.

(ع)

عائشة بنت سليمان: 54.

ابن أبي عامر: 9، 85.

العباس بن الحسن (وزير المقتدر بالـلـه): 69، 78.

العباس بن محمد: 55.

أبو العباس المروزي: 64.

عبد الـلـه بن حمدان أبو الهيجا: 75، 79.

عبد الـلـه بن مالك: 51،52.

عبد الـلـه بن المعتز: 65، 77، 78.

ابن عبد لربه: 46، 48.

عبد الرحمن الناصر: 83.

عز الدين إيبك: 9، 120، 121، 122.

علي بن بليق: 75.

علي بن الجهم: 64، 65.

أبو علي الرازي: 65.

علي بن أبي طالب: 125.

علي بن موسى الوزير: 76.

عماد الدين زنكي: 9، 101.

عمرو بن ضارب بن حسان: 27.

عمرو بن عدي: 30، 31.

عمر بن الفرج الرخجي: 63.

عيسى بن نسطورس: 89.

أبو العيناء (محمد بن القاسم): 63.

(غ)

غازي بن جبريل: 9، 103.

غطرف أخو الخيزران: 45، 47.

(ف)

فاتك المعتضدي: 78.

فخر الدين بن الشيخ: 120.

الفخر الرازي: 24.

أبو الفرج الأصفهاني: 64، 65.

فرعون: 35.

الفضل بن الربيع: 55.

الفضل بن سعيد: 54.

فضل الشاعرة: 8، 63، 65، 70.

الفضل بن عبد الـلـه: 90.

الفضل بن عبد الملك الهاشمي: 78.

الفضل بن يحيى: 54.

فلوتجنس (عالم): 28.

(ق)

القاسم بن عيسى العجلي: 63.

القاهر بالـلـه نحند بن أحمد: 75.

قبيحة زوجة المتوكل العباسي: 8، 69، 72، 73.

قسطنطين بن إرمانوس: 95.

قصير بن سعد اللخمي: 30، 31.

القضاعي، زيد بن حبيب: 92.

قطب الدين ايبك (السلطان): 105.

(ك)

الكامل بن العادل (ملك): 103.

كسرى سابور: 7، 39.

كليو باترا: 28.

(ل)

لفت اللـه الغزالي: 12.

لويس التاسع: 28.

(م)

المأمون العباسي: 16، 50، 54.

مؤنس الخادم: 78، 79، 80.

المؤيد بن المتوكل: 71.

المتوكل العباسي، جعفر بن محمد: 8، 10، 15، 16، 18، 50، 63، 64، 69، 70.

محبوبة جارية المعتز: 70.

محمد بن إسحاق بن المتوكل: 78.

محمد بن بوري بن طغتكين: 101.

محسن الطواشي: 120.

محمد بن داود الجراح: 63، 65، 78.

محمد بن سليمان: 54، 56.

محمد شاه بن خوارزم شاه: 113.

محمد بن أبي عامر: 8، 83، 84.

محمد بن عبد اللـه، رسول اللـه صلي اللـه عليه وسلم: 12، 41، 96، 125.

محمد بن عبد اللـه بن طاهر: 79.

محمد بن الفرج الرخجي: 63.

محمد بن المتوكل (المنتصر): 70.

محمد بن المعتضد (القاهر): 79.

ابن المرزبان: 64.

المستعصم باللـه: 115.

المستعين بالله: 8، 16، 50، 70، 71.

المستنصر بالله: 105، 115.

المسعود يوسف: 103.

مسيلمة الكذاب: 8، 41، 42.

مصعب بن الزبير: 55.

ابن مطروح: 121.

معاوية بن أبي سفيان: 42.

المعتز بن المتوكل: 8، 69، 70، 71، 72، 73.

المعتصم العباسي، محمد بن هارون: 46، 48.

المعتضد بالله، أحمد بن طلحة: 75

المعز إسماعيل بن طغتكين: 9، 103.

المعز عيبق التركماني: 119.

المقتدر بالله، جعفر بن أحمد: 75، 78، 79، 80.

المكتفي بالله، علي بن أحمد: 80.

مكنونة، جارية: 46، 48.

الملك الصلح نجم الدين أيوب: 122.

المنتصر بن المتوكل: 16، 50، 71.

المنصور العباسي، عبد الله بن محمد: 16، 45، 47، 50.

المهتدي محمد بن هارون: 50.

المهدي العباسي، ابن المنصور: 8، 10، 15، 16، 18، 45، 46،47، 48، 49، 50، 51، 73.

موسى الهادي ابن محمد بن أبي جعفر المنصور: 8، 47، 49، 50، 52، 54، 55.

أم موسى القهرمانة: 76.

ميخائيل توقيل: 61.

(ن)

ناروك الخادم: 79.

الناصر أيوب: 103.

نسيم صاحب الستر: 93.

النضيرة بنت الساطرون: 7، 39.

نقفور (ملك الروم): 9، 95.

(هـ)

الهادي، موسى بن محمد، ابن الخيزران: 45، 51، 52، 53.

هارون الرشيد: 8، 12، 15،18، 45، 49، 50، 51، 54، 55.

هشام بن حكم المستنصر: 8، 83، 85.

هشام بن عبد الملك: 46.

هوميروس: 38.

(و)

وجيه الدين الكاساني، قاضي القضاة: 105.

وحشي بن حرب الحبشي، قاتل حمزة: 41.

ابن الوردي، عمر بن المظفر: 41.

(ي)

ياقوت بن عبد الله المستعصمي: 108.

ياني بن شمشقيق (ملك الروم): 9، 95.

يحيى بن الحسن: 54، 55.

يحيى بن خالد: 53.

يزيد بن علي: 46.

الكتب الصادرة للمؤلف

1- الإسلام والشعر.	مكتبة النهضة، بغداد 1964
2- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه.	مكتبة النهضة، بغداد 1964، مؤسسة الرسالة، بيروت 1981، 1983، 1998
3- ديوان العباس بن مرداس السلمي.	وزارة الإعلام، بغداد 1968 مؤسسة الرسالة، بيروت 1992
4- الجاهلية (مقدمة في الحياة العربية لدراسة الشعر الجاهلي)	مطبعة المعارف، بغداد 1968
5- شعر النعمان بن بشير الأنصاري.	مطبعة المعارف، بغداد 1968، دار القلم، الكويت 1985
6- شعر عروة بن أذينة.	مكتبة الأندلس بغداد 1970 دار القلم، الكويت 1981، 1983
7- لبيد بن ربيعة العامري.	مكتبة الأندلس، بغداد 1970، دار القلم، الكويت 1981
8- شعر المتوكل الليثي.	مكتبة الأندلس، بغداد 1971
9- شعر الحارث بن خالد المخزومي.	مطبعة النعمان، النجف 1972، دار القلم، الكويت 1983
10- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه.	دار التربية، بغداد 1972، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997، 1985، 1990، 1995، 2000 جامعة قار يونس، بنغازي 1993
11- شعر عبدة بن الطبيب.	دار التربية، بغداد .1972
12- شعر عبد الله بن الزبير الأسدي.	وزارة الإعلام، بغداد .1974
13- شعر أبي حية النميري.	وزارة الثقافة، دمشق .1995
14- شعر عمرو بن شأس الأسدي.	مطبعة الآداب، النجف 1976 دار القلم، الكويت 1983
15- شعر عمر بن لجأ التيمي.	مطبعة الحكومة، بغداد 1976 دار القلم، الكويت 1981
16- الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية. (ترجمة عن الإنجليزية).	منشورات جامعة بغداد .1976
17- ديوان الطغرائي (بالمشاركة).	مطبعة الحكومة، بغداد 1976 دار القلم، الكويت 1983.

18- شعر هدبة بن الخشرم العذري. وزارة الثقافة، دمشق 1976 دار القلم، الكويت 1985

19- أصول الشعر العربي .د.س مرجليوث. (ترجمة عن الإنجليزية). مؤســسة الرسالة، بيروت 1978، 1981، 1988 جامعة بنغازي 1994

20- عبد الــلـه بن الزبعرى حياته وتحقيق شعره. معهد المخطوطات العربية، القاهرة 1978 مؤسسة الرسالة، بيروت 1981

21- كتاب المحن - لأبي العرب التميمي .(تحقيق) دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، الطبعة الثانية 1988، الطبعة الثالثة 2006.

22- ديوان أحمد بن يوسف الجابر. (بالمشاركة) دراسة وتحقيق. مركز الوثائق، جامعة قطر .1984

23- الزينة في الشعر الجاهلي. دار القلم، الكويت .1984

24- قصائد جاهلية نادرة .(دراسة وتحقيق). مؤسسة الرسالة، بيروت 1982، .1988

25- شعر خداش بن زهير العامري. (دراسة وتحقيق). مجمع اللغة العربية، دمشق 1976.

26- الأقوال الكافية والفصول الشافية (فـــي الخيـــل) للملك الرسولي (تحقيق). دار الغرب الإسلامي، بيروت .1987

27- الملابس العربية في الشعر الجاهلي. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1989.

28- كتاب الردة للواقدي. (تحقيق). دار الغرب الإسلامي، بيروت .1990

29- كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل. للوشاء (تحقيق). دار الغرب الإسلامي، بيروت .1991

30- منهج البحث وتحقيق النصوص. دار الغرب الإسلامي، بيروت .1993

31- الخط والكتابة في الحضارة العربية. دار الغرب الإسلامي، بيروت .1993

32- أمالي المرزوقي. (تحقيق) دار الغرب الإسلامي، بيروت .1995

33- المستشرقون والشعر الجاهلي (بين الشك والتوثيق). دار الغرب الإسلامي، بيروت .1997

34- الكتاب في الحضارة الإسلامية. دار الغرب الإسلامي، بيروت .1998

35- كتاب المنتخل للميكالي. (تحقيق). دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000.

36- محمد بن عبد الملك الزيات. سيرته. أدبه. تحقيق ديوانه. دار البشير، عمان .2002.

37- المحاضرات والمحاورات للسيوطي. (تحقيق) دار الغرب الإسلامي، بيروت 2002.

38- محن الشعراء والأدباء وما أصابهم من السجن والتعذيب والقتل والبلاء. دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003

39- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. لأحمد بن فضل الله العمري (تحقيق). المجلد العاشر المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 2003

40- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. لأحمد بن فضل الله العمري (تحقيق). المجلد والرابع والعشرون. المجمع الثقافي، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة .2004.

41- الشعر الإسلامي والأموي. دار البشير، عمان .2005.

42- الغزل العذري. دار البشير، عمان .2005.

43- المجموع اللفيف (تحقيق). للقاضي الأفطمي للحسيني. دار الغرب الإسلامي بيروت .2005.

44- مجالس العلماء والأدباء والخلفاء. مرآة للحضارة العربية الإسلامية دار الغرب الإسلامي بيروت .2005.

45- بيت الحكمة ونور العلم في الحضارة الإسلامية. دار الغرب الإسلامي بيروت .2006.

46- الحنين والغربة في الشعر العربي. دار مجدلاوي - عمان .2007.

47- مؤنس الوحدة لابن الأثير تحقيق. دار مجدلاوي - عمان .2008.

48- كتاب التحف والأنوار من البلاغات والأشعار للثعلبي. دار مجدلاوي - عمان .2008.

49- مع المخطوطات العربية. دار مجدلاوي - عمان .2009.

50- في رحاب التراث. دار مجدلاوي - عمان .2009.

51- أخبار وأشعار وآداب ونوادر وحكم. دار مجدلاوي – عمان .2010.

52- النساء الحاكمات. دار مجدلاوي – عمان .2010.